سجين زفتى

رواية

عادل القنصل

إصدارات نوارس

فرع ثقافة بورسعيد

مدير عام الفرع

محمد نجيب مبروك

رئيس الخدمات الثقافية

أبو المعاطى سليمان

رئيس الثقافة العامة

محمد خضير

مدير التحرير التنفيذى

السيد السمرى

الإهداء

إلى أصحاب العيون الساهرة ..

الذين لا يكلون ولا يملون من أداء رسالة من

أرقى الرسائل الاجتماعية (الأمن)

والذى نفخر بالانتماء إليهم

إلى أسرتى ..

زوجتى السيدة / رضا الجناينى

وإبنتاى .. ريهام .. وريم

-١-

تلك هى الليلة السابعة التى أقوم فيها بعمل ضابط نوبتجى غلق السجن .. أصبحت كالمساجين .. أشاركهم أنفاسهم تحت سقف واحد ، يضم حجرة النوبتجية وعنابر المساجين .. أتذكر المرة الأولى التى ألحقت فيها للعمل بالسجن .. بعد أن رُقيت لرتبة نقيب .. تلك الترقية التى أعقبها نقلى من الوجه البحرى إلى سجون الوجه القبلى .. وصرت كالمساجين أعد الأيام والساعات حتى تنقضى فترة الخدمة بالوجه القبلى .. وأنا أيضاً مثل من حكم عليهم .. فنحن نشترك فى المدة .. التى تحددت سابقاً .. سنتين .. أعود بعدها إلى الخدمة فى الوجه البحرى .. ويكون لى الاستقرار والقرار فى الزواج .. بمن أحبها .

والليل كما يقول الناس ستار .. وكم أتمنى ذلك .. لأن الليل يمر ببطء .. وبين لحظة وأخرى قد أسمع صراخ لمسجون مريض أو محاولة للهروب .. وأقضى الليل فى المرور على أسوار السجن .. ومراقبة أبراج الحراسة والخدمات المعينة عليها .. ولا يخلو الأمر من المرور بين طرقات عنابر المساجين .. والتردد على المطبخ للإشراف على تعيين الإفطار .. كم أخاف من إعداده .. فقد يغفل الطاهى ويحترق الطعام .. فيحدث ما لا تحمد عقباه .. ورغماً عنى أعيش بين الروائح التى لم أقبل عليها فى بيتى وبين أسرتى .. مثل رائحة البصل والثوم والزيت وخلافه ..حينما كانت تطلب أمى منى العون فى بعض أمور الطهى البسيطة .. كنت أرفض .. لأننى لا أحب رائحة المطبخ قبل إعداد الطعام وأتلهف على روائحه بعد أن تكون أمى قد فرغت من إعداده .. وهناك مسئولية أخرى غاية الخطورة .. وهى الصحة العامة وما يتطلب ذلك من فحص الأغذية

قبل الطهى للتأكد من صلاحيتها .. علاوة على تأمين التغذية .. خشية أن يضع أحد مواد من شأنها إحداث تسمم .. أما الأوزان فهى مشكلة أخرى .. بين الطاهى والمتعهد وبينى .. إذ أن الميزان يحتاج إلى أختام جديدة من مصلحة الموازين .. وناهيك ما يحدث أثناء نوبة الإستيقاظ ومشاكل التكالب على دورات المياه .. وقاعة الطعام وما يحدث فيها من هرج ومرج .. يتطلب أن أكون موجوداً بها .

وما أن يتجلى نور الصباح أشعر أننى فى ارتياح وقد انتهت النوبتجية على خير ومر يوم من السنتين .. وما يلبث أن يحضر زميلى ضابط نوبتجى فتح السجن ليتسلم أعمال النوبتجية فأقبل يدى وأحمد الله .

-٢-

أصبحت نوبتجية الليل أمراً إعتدت عليه .. وأصبح كل شيء روتينياً حتى جاءت الليلة المقلقة حينما صاح مساجين العنبر رقم ثلاثة.. قبل بزوغ الفجر بساعة .. إن الزفتاوى يحتضر ، فأدركت أن الأمر يحتاج إلى الحيطة التامة والتروى فى مثل تلك الأمور .. فقد تكون حيلة .. يعقبها الهرج والمرج .. من مساجين ، لا يعرفون لأى شيء قيمة ولكننى انتقلت الى العنبر وتم فتحه .. بعد الإجراءات .. من تسجيل فى دفاتر وتشديد حراسة .. نظرت إلى الزفتاوى .. فإذا به شاب نحيل .. نحالته تكاد تقتله .. وعيناه باهتتان .. لا أستطيع تحديد لونها .. ما ان اقتربت منه للوقوف على حالته .. وما إذا كان الأمر يستدعى نقله للمستشفى إلا صاح النواصيرى .. أخطر المجرمين .. مردداً

- ده ظلم يا سعت البيه .. الراجل برىء .. ياخد تأبيده ولم أفهم ماذا يقصد .. وما الذى دفعه للتحمس لهذا السجين بالذات .. وسألت عن قضيته .. قال آخر ويدعى وريدى هريدى ..
- تأبيده عشان قتل خطأ .. ده ظلم .. احنا لازم نستأنف الحكم .

وأدركت أن هذا السجين .. رغم تفاهته على ما اعتقد .. أنه زعيمهم.

-٣-

مع الحديث أوشك النهار .. واستدعيت الطبيب لعمل اللازم نحو المسجون .. الزفتاوى .. وتوجهت إلى حجرة الباش كاتب .. وطلبت ملف من يسمى بالزفتاوى .. فوجدت أن هذا الإسم كنيته .. أطلقها عليه زملائه .. نسبة إلى بلدته زفتى .. واسمه الحقيقى .. صلاح محمود الراوى .. ومتهم فى الجناية رقم ١٧ .. قتل عمد مع سبق الإصرار والترصد .. للمجنى عليه .. ربيع القناوى .. مقاول مبانى .. وصلاح مهنته مهندس بمجلس المدينة .

نظرت إلى صورته الموجودة بالملف .. فإذا بها لشخص مغاير تماماً لما رأيته .. عيناه خضراوان .. وشعره أصفر .. ووجهه ممتلىء بالصحة والحيوية .. فحصت تاريخ إلحاقه بالسجن .. فكان منذ ست أشهر .. لا أكثر .. ومررت ببصرى على زياراته .. فلم أجد أحداً قد زاره خلال تلك الفترة .. وجمعت كل ما يخصه من قريب أو بعيد .. وشدنى فضولى لمعرفة كل شىء عنه .

جاء ميعاد أجازتى المجمعة .. لمدة خمسة أيام .. وكنت كالمساجين الذين تصادف الإفراج عنهم فى ذلك اليوم .. فكانت سعادتنا متشابهة .. حتى خروجنا من باب السجن .. كأنه فرح .. وعلى قدر سـعادتى .. إلا أننى كنت أحمل هم العودة من الاجازة .

جمعت حاجاتى .. وبعض الهدايا لأسرتى .. من ملوحة .. وعدس .. وحمام .. مما اشتهرت به البلدة الكائن بها السجن .. وفى جيبى قصاصة من ورق مدون بها عنوان .. الزفتاوى .. أو صلاح محمود الراوى .

ووصلت القاهرة .. فجراً .. وألقيت نفسى فى سيارة أجـرة .. وأنـا منهك القوى .. كالعادة أمى تقابلنى بالحب والحنان والدموع .. وأخوتى كذلك .. فأنا الكبير وعائلهم الوحيد بعد وفاة والدى .. ثم ارتميت علـى سريرى الذى أوحشنى لمدة خمسة وعشرين يومـاً .. وأكـل أرزاً مـع الملائكة .. فلا نوبة بروجى السجن تقلقنى .. ولا صـراخ مسـجون .. ومشاكل الصباح من الإفطار وطهيه وطابور الصباح للمساجين ..أستيقظ فى الغروب على نداء أمى .. فأصدقائى الذين يحسبون ميعـاد إجـازتى حضروا لزيـارتى

لنقضى سهرة جميلة سوياً .. وأقربهم لى مصطفى الناغى .. صحفى تحت التدريب وأديب .. وإبراهيم العاصى .. تاجر سيارات .. مهنة ورثها من الأب .. وخليل حسنين طبيب بمستشفى بولاق العام .

نخرج سوياً لنجلس فى أحد الأماكن التى اعتدنا ارتيادهـا .. نـادى الشرطة .. نادى الأطباء .."أجنس" إبراهيم العاصى .. أو الدخول للسينما أو المسرح .. والجلسه لا تخلو من تحقيقات زميلى مصطفى النـاغى ..

الصحفى والأديب .. عـن المسـاجين .. وقضـاياهم .. وطـرائفهم .. ومآسيهم .. ليعد مقالاً أو يكتب رواية .. وحاضـرتنى حكايـة صـلاح الراوى .. الشهير بالزفتاوى وما ان حكيتها .. إلا وقفز مصـطفى فـى الهواء قائلاً :

– وجدتها .. هى دى القصة اللى تفرقـع .. سـجين زفتـى .. وضحك الجميع .. ظناً منا أنه يهرج كعادته ولكنه فى صـيغة تأكيد يقول :

– أنا باتكلم جد .سجين زندا .. قصة عالمية .. وسجين زفتـى قصة محلية .. وممكن توصل للعالمية .

وانهال علىّ بأسئلته .. وبالفعل كأنه وكيل نيابة يحقق فى قضية .

ومر اليوم الأول من إجازتى .. وكان موعدى مع " عُلا " وكلى شوق لرؤياها .. والاستماع إلى صوتها الدافىء .. وكدت أطير فرحاً وأنـا أتخيل بأى رداء ستقابلنى .. هى تعلم أنى أحب الفستان الموف الذى يبرز مفاتنها .. وصفاء بشرتها .. ولون عينيها العسلى المـذهب .. وتوجهت لكازينو الشجرة .. مكان لقائنا وانتظـرت .. وانتظـرت .. ساعة تجر ساعة ولم تحضر ، فتشت ذهنى وتصبب من وجهى العرق .. نظر الجرسون إلىّ من بعيد وكأنه يعرف أننى على موعد .. أدرت وجهى الناحية الأخرى حتى لا أبدو كالمراهقين فى نظر هذا الجرسون الفضولى ، وحينما أدرت وجهى لمحتها تأتى من بعيد .. لكنها تبدو مكفهرة الوجه وترتدى فستاناً لا يدخل ضمن صحبة الألـوان التـى أحبها .. اقتربت حتى دنت منى .. صافحتها ويدى فى شوق لملامسة يدها .. ولكنها كانت فاترة فى المصافحة ، وفى إلقاء التحية .. ثـم

أدارت وجهها تجاه النيل وذابت فى صمت عميق .. ولم يكن أمـــامى إلا أن أسألها:

- مالك يا علا ؟

أجابت ووجهها ما زال متعلقاً بمياه النيل :

- تقدم لى عريس

وضحكت .. ضحكة مكتومة .. لم أعرف ماذا أقول لها ، حاولـــت أن أمازحها لصدمة الخبر .. قلت لها :

- عريس .. غيرى ؟

ثم واجهتنى وقالت فى امتعاض :

- بقالنا تلت سنين بنتقابل ، وما فيش أى خطوة إيجابية منك .. أنا حاسه انك بتتسلى .. ما هى دى طباع ظباط البوليس .. ماما قالت كده .

وكانت كلماتها كالصاعقة .. بل كالبركان الذى فارت نيرانه فجأة وكان علىّ أن أرد لأثبت حُسن نواياى .. وبما يؤكد عظمة حبى لها .

- أنا مستعد آجى أخطبك .. دلوقتى

وازدادت بعبارات لم أتوقعها منها

- بدبلتين ؟! .. ومهر ربع جنيه .. زى ما بيحصل الأيام دى .. لا يا عصام .. خالى وماما مش هيوافقوا

فلاحقتها متلهفاً

- وانتى رأيك إيه

وعادت إلى صمتها .. وأدارت وجهها مرة أخرى تجاه النيل ثم قالت فجأة دون أن تصافحنى وكأنها جهزت لكل شئ ..

ليكون هذا هو لقاؤنا الأخير

- عن إذنك يا عصام .. أنا خايفه حد يشوفنا مع بعض .

وانصرفت فى خطى سريعة دون أن تنظر خلفها ، وكأنها بالفعل ما حضرت خصيصاً إلا لترمينى بقرارها الظالم الذى لا أعرف مغزاه .

-٥-

سرت فى الطريق تائهاً .. أشعر كأننى فى حلم . لم أر أى شـــئ فى الطريق .. لا السيارات .. ولا المارة .. لا أعرف إلى أين تقودنى خطاى حتى وجدت نفسى أمام الجريدة التى يعمل بها مصطفى الناغى .. وصعدت السلم كأننى مهزوم ومنكسر .. ولا أعرف ماذا ســأقول له.

-٦-

جلستُ صامتاً .. غارقاً فى التفكير .. يــدى ترفــع كــوب الليمون .. ارتشفه بلا وعى .. ومصطفى ينظر لى ويضع القلم فى فمه ثم يباغتنى بالأسئلة :

- اتخانقتم ؟! .. إذا كان عندك مشكلة عاطفية تعــالى نعرضــها على زميلنا الأستاذ محرم .. صاحب باب القلوب المعذبة .

ونظرت له والكلمات تخرج منى متتالية ومتوالية ..

- أنا .. اتظلمت .. أو بمعنى أصح .. المهنة بتاعتنا مظلومة .. كل الناس فاكره .. ان ظباط البوليس .. عندهم لا مبالاه .. خصوصاً بعواطف الآخرين .

وأخذ مصطفى يسجل ما أقوله فى دقة ويستطرد ..

- وبعدين ؟!

والكلمات تتوالى .. والأفكار تتخبط فى رأسى

- أنا عاوز أستقيل .. وأشتغل محامى .. مع ان مهنتنا مليانه بالظباط اللى على خلق .. زى والدى الله يرحمه .. أمى كانت بتحبه وبتعبده .

ويعود مصطفى ويضع القلم فى فمه و يستطرد..

- بينى وبينك . انت المفروض .. كنت بقيت دكتور يا عصام .

وفى عصبية ثائرة .. وقد نسيت نفسى والكلمات ما زالت تخرج منى بلا ضابط ..

- الرسالة بتاعتنا من أسمى الرسائل الاجتماعية .. لو فيه حد أساء لها .. يبقى تصرف شخصى وشاذ .. لا يؤثر فى القاعدة العامة .

وأشعل مصطفى سيجارة فى هدوء .. وأشعل لى واحدة أخرى وكأنه لا يريد أن أستمر فى الحديث عن مهنتى .. أو محنتى .. قال وكأنه يتهرب من الموضوع .. وهو يرفع صورة رسمها :

- ايه رأيك .. فى الغلاف ده .. سجين زفتى .. مش يبقى حلو للكتاب.

ونظرت له فى حيرة وقلت فى نفسى ...

(ان حديثه هذا لا ينم إلا على الاستهتار بمأساتى) وأعـددت نفســى للإنصراف .. ولكنه استوقفنى ونظر لى نظرة عطف وشفقة .. كادت تمزقنى.. ثم طلب منى عنوان .. صلاح الراوى .. " سجين زفتى " .. وأمام عدم اهتمامه .. أخرجت الورقة من جيبى وأعطيته إياها .. فى عدم اهتمام .. ولم أعلق .. وانصرفت .

-٧-

أغلقت على نفسى حجرتى .. لم أستطع أن آخذ قراراً .. هـل أستمر متطفلاً أم أستسلم صوناً لكرامتى بعد أن انتابنى شعور غريب .. فهى لم تعد الصورة التى أحببتها .. فكم كان تفكيرى فيها غالياً .. وهى كانت رخيصة الأحاسيس .. وتمنيت أن ينقضى اليوم الباقى من الاجازة .. وأعود الى عملى وهو الواقع الذى لا أستطيع أن أهـرب منه .. حتى لو رفضته بينى وبين نفسى .. ولم أخرج من ذلك التفكير الذى كاد يقتلنى إلا على أثر طرقات على الباب .. من أمى الحبيبـة التى أعتبرها أعظم أم فى الدنيا .. بل أعظم حواء .. لحبها المفـرط لأبى رحمه الله .. لحنانها .. وصدقها ..

أخبرتنى أمى أن الصديق مصطفى .. فى انتظارى .. ويريـد أن يقابلنى لأمر هام .. فخرجت من الحجرة كأننى خرجـت مـن سـجن وضعت قيوده بيدى .

أخذ مصطفى يثرثر كعادته .. وأنا أنظر له صامتاً .. وكم حسدته على حياته البسيطة التى يسيطر فيها عمله الذى يحبه على كل تفكيره ، وتنبهت له على أثر كلماته المؤثرة :

- مأساة .. سجين زفتى ده حكاية كبيرة أوى يا عصام يا اخويا .

ولم أدر ماذا يقصد .. لكننى التزمت الصمت ، ثم عاود الحديث مرة أخرى بتأثر بالغ ..

- أمه مريضه .. بتعمل غسيل كلــى مــرتين فــى الاســبوع .. والجيران بيلموا من بعض عشان يعالجوها .. وأخوه الصغير طلع من أولى اعدادى واشتغل صبى سباك ، عشان يصــرف على أمه .. وأخته الكبيرة ربنا يسترها علينا وعلى ولايانا .

وقبل أن يكمل ما يقول أصغيت له جيداً كأنــه يــروى حكايــة تراجيديه .. ونظرت له مستفسراً عمن يحكى .. قال فى أسى:

- صاحبك المسجون .. صلاح الراوى .. سجين زفتى .. أخته يا سيدى عندها لطف .. وواحد ضحك عليها وهــرب .. وهــى كمان هربت .. لا أمها ولا أخوها الصغير ولا حتــى صــلاح يعرفوا عنها حاجه .. بالذمة دى مش مأساه .

اتبهت له أكثر .. وشدنى فضولى أن أعرف بقية الحكاية فقال:

- وصلاح .. أمه ما تعرفش عنه أى حاجة .. وعنيها ما بتبطلش عياط .. ده هو كل حاجة فى حياتها .

- وسألته .. كيف توصل لتلك المعلومات بهذه السرعة .. فأخبرنى أنه سافر زفتى صباح اليوم وجمع تلك المعلومات من الجيــران .. ثم زار الأم .. وأخبرها كذباً أن صلاح كان مطلوباً للتجنيد .. من سنه وهو حالياً فى الوادى الجديد يقضى فترة تجنيده .

وأخرجنى .. مصطفى .. بتلك القصة .. مما أعانيه .. وكنت أعتقد أن ما قاله من نسج خياله فأقسم أنها حقيقة .. وبدأ فى استكمال الحكاية أو المأساه .. على حد قوله .

-٨-

فى القطار وفى رحلة العودة إلى السجن .. أفكار كثيرة راودتنى .. علا .. وهل هذه هى نهاية قصة حبنا .. أقصد .. قصة حبى .. وأمى .. التى طالما أحلم بأننى سأعود يوماً فلا أجدها .. وحكاية صلاح الراوى .. المأساه التى جعلتنى أعذر زملاءه فى العنبر .. لتعاطفهم معه .. وحكاية مرض الأب .. الذى حكى لى مصطفى ..

الأب المصاب بحالة نفسية أودت بحياته .. وأخته التى ورثت نفس المرض وضاعت .. وصلاح .. من المؤكد أنه أيضاً .. قد طالته لعنة ذلك المرض .

ونظرت فى ساعتى .. وجدتها الثانية صباحاً .. والقطار سيصل بإذن الله السادسة صباحاً .. وأنا ركبت من القاهرة فى الثامنة مساءً .. آه مشوار طويل .. ولكن يجب أن أتعود .. باقى لى ثلاثة وعشرون شهراً حتى أعود إلى القاهرة .. لكن لمن أعود ؟!! .. لأمى وأصدقائى وأخوتى و ...... وآسفاه !! سقطت من قطار حياتى .. ما أصعب أن يصدم الإنسان .. وتتحطم آماله .. أمام أول تجربة حب .

ودخلت السجن .. اليوم هو الأول من شهر يوليـــو عـــام ألـــف وتسعمائة واثنين وسبعين .. سأبقى فيه لمدة خمســـة وعشـــرين يوماً حتى أقوم بإجازتى المجمعة .. وكأنها عقوبة الحبس لمـــدة عامين .. وأحسد نفسى .. فأنا غير باقى المساجين .. فكل شهر أخرج خمسة أيام .. وأخذت أفكر .. ما ســـأفعله فـــى الإجـــازة القادمة .

فى اللحظة الأولى لدخولى باب السجن .. أخبرنى نوبتجى البوابة أن السيد المأمور يريدنى .. آه .. ماذا يريد ؟! هذا الرجل الغاضب دائماً التى أضفت عليه خدمته بالسجون علامات قسوة جدرانها .. فأنا أرى فيه كل ما فى السجن من قسوة .. وآمال لأناس تحطمت على أعتابه .. وذلك ما يخفف من حدة التعامل بيننا .

ما ان دخلت مكتبه .. وجدته مكفهر الوجه .. وقال فـــى حـــدة وصرامة :

- شوف يا عصام .. انت ضابط كويس .. ووالدك الله يرحمه كان أستاذى .

وأصغيت لكل عبارة ينطق بها .. وما قاله الآن يكرره كلما تحدثت معه .

- الخدمة بالسجون .. محتاجة صرامة .. بس مـــش قســـوة .. إحنا بنخدم وسط ناس أغلبهم مجرمين بالفطرة .. يعنى احنا قدام مشاكل لا تعد ولا تحصـــى .. وضابط السجون لازم يكون واعـــى

وقوى .. خاصة قدام المساجين .. هم أذكياء وبيوزنوا الضـــابط .. ميزان فى منتهى الحساسية .. يا اما يحترموه ويهابوه .. يا امـــا .. وانت عارف بقى .

أمام كلامه وعباراته المتلاحقة أدركت أنه صدر منى أمر يخالف لوائح السجون .. لكننى لم أجد شيئاً يدخل فى دائرة الإهمال اللهـــم عــدم الخبرة الكافية بلوائح السجون .. وهو عمل ليس لى به عهد من قبل.

-١٠-

ذهبت إلى المقدم فريد .. نائب مأمور السجن .. هو أيضاً جاد للغايه فى تعاملاته مع المساجين والعاملين من قوات نظامية ومدنيين إلا أنه تصدر منه أحياناً ابتسامة حينما يكون معتدل المزاج .

ما إن دخلت عليه مكتبه وأديت التحيـــة العســكرية حتـــى أذن لـــى بالجلوس .. وما إن وجدت الإبتسامة القليل حدوثها إلا فاتحته فيمـــا قاله لى المأمور .. فكانت إجابته صريحة وسريعة ومتلاحقة .. قالها وهو ما زال يبتسم :

- شوف يا عصام بيه .. أنا مش هاكرر كلام السيد المـــأمور .. إنما هاجيب من الآخر .. انت بتتباسط فى تعاملاتك مع المسجونين .. وبتحسن النوايا تجاههم .. والمساجين زى البطيخة .. يا تطلع حمرا .. يا تطلع ..

ولم أعلق على كلامه ، وراجعت نفسى .. وجدت أنها طبيعتـــى فـــى التعامل .. تحكمها أخلاقيات وثقة .. قد تصل لحد الإفراط وهـــذا مـــا كانت نتيجته موقف علا منى ، لكنى سرعان ما اتخذت قرارى السريع

بألا أتخلى عن طبيعتى لأنى مؤمن أن الطبع يغلب التطبع .. وإذا ما غيرت من تعاملاتى فلن أكون أنا .. عصام ... ستكون النتيجة شخصية باهتة .. لا أعرفها .. وجاء قرار آخر لكننى أجلته إلى حين .. وهو تغيير مسار حياتى العملية .. ولطالما راودنى هذا التفكير .

-١١-

حل ميعاد نوبتجية الليل .. كانت تلك الليلة شديدة الحرارة .. وأزاد من حدتها جدران المكتب المبنية من الحجر الصلد .. فأصبحت الحجرة أشبه بحجرة السونا .. بل أصبحت جهنم والمروحة تحرك هواءً ساخناً .. وفكرت فى المساجين .. كيف يطيقون هذا الجو الخانق .. وخاصة العنابر الجماعية .

لكننى ضحكت .. فهم الآن نائمون .. لا يشعرون بأى شىء .. وأنا .. لابد أن أكون يقظاً .. وكذا أفراد حراسة الأسوار والأبراج .. وأفكار كثيرة تراودنى دائماً .. أمى .. علا .. رغم أننى أتناساها .. ولكنها أثرت فى حياتى إيجابياً فى بداية قصة حبى لها .. والآن سلبياً لما تركته من جرح لا يندمل .. ثم فكرت فى مسئوليتى .. الكل آمن .. أفراد الحراسة .. والمساجين .. إلا أنا .. لا قدر الله إذا حدث شىء فأنا المتحمل للمسئولية كاملة .. وضحكت .. حينما أدركت أن عيناى واحدة .. وأذناى واحدة .. ككل البشر .. تدرك ما تراه العين فى حيز ضيق .. وما تسمعه أذنى أيضاً .. ولكن .. مطلوب أن تكون عينى مثل كاميرا السينما .. فى كل مكان .. فى العنابر

والطرقات .. والأسوار والأبراج .. وضحكت أكثر حينما أدركت أن ذلك محال تحقيقه .. ولكنها المسئولية .

ثم سمعت صوتاً .. لم أستطع تحديده .. ولا من أين هو آت .. ونهضت من مقعدى .. وخرجت مسرعاً للطرقة المطلة على العنابر .. فلم أسمع ذلك الصوت .. وما ان دخلت الحجرة حتى سمعته مرة أخرى فاعتقدت أنه فأر أو ثعبان أو عقرب .. فالأمر لا يخلو من ذلك فى تلك البلدة الموجود بها السجن .. خاصة أننى أسمع أن الدبيب .. أو تلك الحيوانات والحشرات تهرب من أماكنها فى الحر الشديد .. ثم أخذت أدقق النظر فى الحجرة .. فلم تبصر عينى شيئاً .. عينى التى يجب أن تمتد لترى كل شىء فى السجن .. وأنا قابع فى تلك الحجرة .. وازداد الصوت فإذا بى أرى طلاء الحوائط ينفصل .. من شدة الحر.. وضحكت مرة أخرى ولم تطل الضحكة .. مجرد ثوان لا أكثر .. وسمعت صراخاً فأدركت أنه من سجين زفتى .

-١٢-

حضر الطبيب ونظر لصلاح فى حدة .. كأنه ضاق به .. ثم أعطاه حقنة مهدئة .. سألت الطبيب عن حالته .. فقال فى ضيق:

مسجون وعايز يخرج من السجن .. لأ ده بُعده .. أنا بقالى عشرين سنة باشتغل فى السجون .. وعارف حيل المساجين

ونظرت له مدققاً .. انه صورة المأمور .. ونائبه .. ويبدو أن كل العاملين فى السجن صورة واحدة .. يجمعها .. عدم الثقة فى

المساجين .. وكلهم يؤكدون أنهم مذنبون .. مـذنبون .. ويجـب أن يعاملوا بقدر ذنبهم .. ولكن .. فى لاشعور فزعـت فـى الطبيـب .. وأكدت أن ذلك السجين .. مريض مرض نفسى .. ورائى .. فما حانت منه إلا نظرة عدم اهتمام .. مردداً نفس العبارة التى طالما ضايقتنى :

– يا حضرة الظابط انت عاطفى زيادة عن اللزوم .. والشغل فى السجن عاوز ...

وقبل أن يكمل عبارته .. استوقفته .. فإذا كانت الحدة والصرامة من طبيعة وظيفتنا .. فهو .. لا .. لأنه طبيب .. والطبيب يعامل الجميـع من جانب انسانى .. بصرف النظر عن كينونته .. ثم توجهت لصلاح وجلست بجواره أتفحص وجهه البرىء .. وحزنت لمأساته .. وتمنيت لو أستطيع مساعدته .

-١٣-

خبر .. فظيع .. مفزع .. لا أصدق عينى .. لا أصدق عقلـى .. وأخذت أدقق فى الصورة .. ثم أنظر أسفلها لقراءة الإسـم .. هى .. هى .. علا .. وبتلك السرعة .. لم يمـض أكثـر مـن أسبوع وتُزف إلى هذا الرجل .. رجل أعمال .. يمتلك مالا أستطيع أن أملكه طوال خدمتى .. هكذا الأمور فى هذه الأيـام .. أصـبح المال كل شىء .. أصبح هو الوجاهة .. والوضع الإجتماعى .. ووظيفتى التى طالما أكدت أمى إنها مطمع الأسر العريقة .. وحلـم الفتيات !! .. وأتذكر إلحاح الأسرة لالتحاقى بكلية الشرطة .. فهى مهنة الأب .. وهـى مهنـة كريمـة .. ولهـا وضعهـا الإجتماعـى .. وكلـمات عمتـى ترن فـى أذنـى .. فأنـا وجيـه

.. قوى البنيه .. فارع الطول .. وحتماً سـأكون لائقـاً للـزى الأميرى .. وأنا .. ماذا كانت رغبتى ؟ .. مهندس أو طبيب .. وهى من المهن ذات الطابع الإجتماعى .. ووضعها المادى على المدى البعيد .. سيكون أفضل بكثير .. ولكننى وقتها لـم أكـن أعرف معنى كلمة المستقبل التى يكررها الجميع .. وكل ما كان يشغلنى فى ذلك الوقت .. أن أحقق رغبة أمى .. لأكون امتداداً لأبى... وكان الامتداد .. ولكن كان الألم .. فأنا أحب هذه المهنة .. لأن رسالتها عظيمة .. ولكن أساليب التعامل لا تنقصنى ولا أنا عاجز عنها .. فأنا أملك السـلطة .. ولكنـى أرفضـها .. أرفضها مهما كانت نتائجها .. حتى لو أدت لتحقيـق العدالـة والوصول للحقيقة .. وكانت ليلة طويلة .. تذكرت فيها أشـياء كثيرة .. لم تجل بخاطرى من قبل .. الطريقة التى تعرفت بهـا على عُلا فى النادى إبنة اللواء محمود .. رحمه الله .. صـديق والدى الذى استشهد فى إحدى الحملات الجنائية .. وأدركت أن والدتها التى أبعدتها عنى .. لا تريد أن تمتد المأساه لحياة ابنتها .. أو على الأقل لم تبرق وظيفتى فى عينيها .. فهى من المؤكد قد عانت كثيراً .. مثل أمى .. ولكن أمى كانت صـورة أخـرى فهى تعتز بوظيفة أبى دون النظر لطبيعتهـا الصـعبة .. ودون النظر لوضعها المادى .. المحدود .. عكس ما يظن أغلب الناس .. وكالعادة .. أخرج لعالم الواقع الذى أعيشه .. على صـرخة سجين .. أو مشكلة فى إعداد الطهى .. أو مـرض مفـاجىء يصيب أحد أفراد الحراسة .. ولكن تلك المرة .. كانت ضحكات.

وانطلقت تجاه العنبر الصادر منه الضحكات التى بدت هستيرية .. وقبل أن أصل .. وجدت الحارس هو الآخر منطلقاً فى الضحك .. وتحريت الأمر .. فأخبرنى بتلقائية وهو يكتم الضحك .

- أصل .. أبو زيد الهلالى .. وصل امبارح

فسألته فى تلقائية :

- مين أبو زيد الهلالى ؟!

وعاود الحارس الضحك رغماً عنه .. وحكى لى .. حكاية أبو زيد الهلالى .. انه نشال .. معتاد الدخول للسجن .. بتهمة النشل فى أحد الموالد المشهورة فى البلدة .. وكلما عاد .. يحكى سيرة أبو زيد الهلالى للمساجين بصورة فكاهية ويكمل ما توقف عنده سابقاً .. ولا يستطيع أحدهم أن يستوقف نفسه من الضحك .. وكأنه يخرجهم من معاناتهم طوال النهار .. فى أشغال السجن المكلفين بها .. ويخرجهم من التفكير فى ليل السجن البهيم التى طالما يقلب عليهم مواجعهم .. وهو حالى حينما أكون منوب ليل فى السجن .. والحق . أننى أخذت أضحك فى هستيريا .. وكما يقولون (هم يضحك وهم يبكى)

-١٥-

باقى من الزمن عشرة أيام .. وكأنها عشر سنين حتى أقوم باجازتى .. فيوم العمل بالسجن طويل وشاق .. ووحدة الليل أشد طولاً وشقاء .. سواء فى حجرة نوبتجية السجن .. أو فى حجرتى

بالاستراحة .. فأنا كلما أغلقت بابها .. أسمع صوت باب الزنزانة .. بضخامته وحركة القفل والمتاريس ، وأعود وأتذكر عملى قبل الحاقى ضابط بالسجون .. ضابط مرور بالعاصمة .. عمل شـــاق .. ولكـــن تعاملى كان مع أرقام ..أرقام سيارات .. دائماً أركـــز عينـــى عليهـــا لالتقاط أرقام المخالف منها ..أو على الأكثـــر .. المـــرور بالدراجـــة البخارية .. سواء فى التشريفات أو خدمات مباريات الكره وما شابه .. أو فى حالات التكدس التى تطلب تحركى من أجل سيولة المـــرور فى مكان ما بقلب العاصمة التى يفوق عدد السيارات بها عن المشاه .. وتنهدت .. أيام تمر فى حياتى.. ولا أعرف الى أين ســـتأخذنى .. هل سأتزوج ؟ ومن هى ؟ وهل ستتحمل مثل أمى مشقة هذا العمـــل الذى يسرق عمرى فى سبيل الرسالة .. وتنهدت أكثر حينما تـــذكرت عدد المرات القليلة التى رأيت فيها أبى .. كل خدمته بعيـــداً عنـــا .. وأمى تتحمل المسئولية كاملة .. من تعليم .. وملبس .. ومأكل .. حقاً إنها سيدة عظيمة .. هل أجد زوجة تشبهها ولو فى أقل القليل وقـــد خسرت أول معركة قبل أن أدخل رحاها .

-١٦-

نوبتجية نهار .. قلق .. وصخب .. وإجراءات إلحاق مساجين جدد .. والافراج عن آخرين .. وزيارات .. ومشاكل لاتحصى ولا تعد .. ولكنها أهون من الليل بسكونه وتفكيره وظنونه .. وما ان دخلت من باب السجن حتى لاحظت حركة غير عادية .. آثرت ألا أسأل أحداً من العاملين .. وتوجهت الى مكتب نائب المأمور لتلقى أى تعليمـــات أو توجيهات .. وما ان دخلت وجدته مكفهر الوجـــه .. وفكـــرت أن

أخرج .. إلا أنه ناداني بصوت جهوري ، ودعاني لأجلس أمامه وأخذ ينظر متفحصاً . . مما أثار قلقي وقبل أن أبدأ في الحديث .. قال في تأكيد :

- انت ضابط كويس يا عصام .. المساجين كلها بتقول كده .. انت عندك حق انك تتقرب منهم مع ان السيد المأمور ما بيحبش الأسلوب ده .

وصدرت مني ابتسامة .. وبدت على وجهي اشراقة .. وقلت له أنى سأكون دائماً عند حُسن ظن الجميع .. ولم أعرف لماذا يقول تلك العبارة .. زاد وقال :

- انت عارف ان المساجين .. كانت هتضرب عن الطعام في فطار النهارده الصبح .. انت عارف ليه .. لأن سيادة النقيب حسان .. محضرش توزيع تعيين الفطار .. والأكثر انه ما مرش على المطبخ خالص .

وأشفقت على زميلي .. فمن المؤكد أنه له عذره .. نوبتجية الليل في السجن .. عذاب .. أكثر من عذاب المساجين ..إلا أنه استزاد وقال :

- المساجين كلها بتقول .. ان في نوبتجيتك الفول .. والعدس.. بيتاكلوا عن آخرهم .. لأنك بتشرف على الطهي .. والتوزيع بنفسك .. وقبل كده ماكنش فيه أي اقبال عليهم .

وقلت له .. هذا واجبي .. يا سيادة النائب .. فأنا أعرف واجبات ضابط منوب واحفظها عن ظهر قلب .. وقال في تأكيد.

- انت عندك ضمير .. وأخلاقيات .. وانشاء الله هيكون لك مستقبل في عمل السجون .

قال تلك الكلمة وكاد قلبى يتوقف .. فأنا بالفعل أحب عملـى .. وان كنت غير راضى عنه أحياناً .. ولكن .. لا أستطيع الاستمرار فى هذا العمل .. فالدقائق فيه تمر ساعات .. وأحيانـاً .. أيـام وسـنين .. فالمسئولية تفوق قدراتى النفسية وخشيت أن يكون رأيه ذلك تقريراً يحسب لى فى العمل .. ويكون سىء الأثر فـى نفسـيتى .. وأنهـى حديثه بعبارات الإطراء والمديح لشخصى .. وأكد ذلك حينما قال :

- حتى المسجون اللى اسمه صلاح الراوى .. بيقول لزميله انك انسان .. ولولا اهتمامك بيه .. ما كنـتش حالتـه النفسـية اتحسنت .

وأمام تلك العبارات شعرت كأنى حملت على كاهلى أثقالاً تفوق قدرتى. توجهت لصلاح فى المستشفى ، ووجدته قد بدأ يتماثـل للشـفاء .. وبدأت النضارة نسبياً تتسلل لوجهه الشاحب .. ما ان رآنـى حتـى ابتسم .. ووجه عبارات الشكر لى علماً بأننى لم أقدم له شيئاً يحسب .. غاية الأمر .. الاهتمام بحالته التى أعرفها وهو لا يعرفهـا ، ولا يعرف علمى بها .. وحاولت وأنا فى غاية الحـذر أن افاتحـه فـى موضوع جريمته ، ولكن ملامح وجهه سرعان ما تغيرت ، وبـدأت رعشة تدب فى أوصاله .. فأشفقت عليه .. وفاتحته فى أمر آخر .. علاقته بالمسجونين زملائه .. فتحدث فى حزن يشوبه شـىء مـن التفاؤل .. وقال وهو يتنهد :

- أنا .. أول مرة أحس أنى حر .. وبين ناس طيبين .. ناس فى غاية الصدق والشهامة .. ناس ما بتعرفش تكذب أو تخدع.

وتعجبت لحديثه .. السجن له حرية .. والحرية سـجن .. ولكنني أيقنت على الفور أنني بالفعل أمام حالة نفسية خاصة وحساسة .. ولم أزد شيئاً حتى لا أثقل كاهله بما يأتي بنتائج قد تكـون عكسـية .. وودعته .. وتمنيت له الشفاء على أمل أن ألتقي به مرة أخرى .

-١٧-

نوبتجية ليل أوشكت على الانتهاء .. فأنا أشعر بنسـيم الفجـر يتسلل من الحجرة التي تبدو كالبساونا.. وما هي الا ساعات ثلاث أو أربع لن تزيد بإذن الله حتى أكون في طريق العودة للقاهرة .. توجهت للإشراف على تعيين الافطار وتوزيعه .. واقترب مني النواصري .. رفيق صلاح بالعنبر .. وقال بلهجته الصعيدية الجادة .. والحادة:

– صباح الخير يا سيد الناس .. أيوه سيد الناس .. احنا ما مرش علينا في السجن واحد بأخلاق سيادتك .. ربنا يكتر مـن أمثالـك .. ومش هاوصيك على صلاح .. ده ابن ناس .. مسكين .. مظلوم فـي القضية اللي اتعملت له .. آه يا سعت البيه .. المقاول اللـي اسـمه هجرس.. راجل ظالم وراشي ومرتشي.. ضحك على المهندس صلاح ووداه في ستين داهيه .

نظرت له .. كنت أود أن أسمع منه أكثر .. ولكني أفكر فـي السـفر وميعاده .. قطار الساعة العاشرة صباحاً وأتمنى أن تمر النوبتجيـه على خير .. طلبت منه أن يؤجل الحديث عن صلاح حتى أعود مـن اجازتي.. فدعا لي بعبارات .. يقشعر بدني حينما سمعتها .

- ربنا يوديك لأهلك بالسلامة ، وما تتحرمش منهم ويسترها معاك .. ويكفيك شر المستخبى وولاد الحرام .. ويكتبلك فى كل خطوة سلامه .

-١٨-

ألقيت نفسى فى مقعدى الذى يحمل رقم عشرة .. فى العربة رقم ثلاثة بالدرجة الثانية المكيفة .. وظل قلبى يدق حتى تحرك القطار من المحطة .. فأيقنت .. أننى بعدت .. وكلما بدأت مبانى البلدة فى التلاشى ازددت طمأنينة .. حتى بدت المزارع فى الظهور .. فأيقنت أكثر أننى خرجت من حدود المدينة والسجن .. وكل شىء يبعدنى عن أهلى وأصدقائى ..

وانقضى شهر آخر .. مخصوماً من مدة خدمتى بالوجه القبلى .. وفى سجونها .

-١٩-

وصلت فى العاشرة مساءً .. لم أصدق نفسى أننى وصلت إلى القاهرة .. بعد معاناة السفر الطويل .. كانت المفاجأة .. مصطفى .. صديقى .. ينتظرنى على رصيف المحطة .. وبيده دوسيه به أوراق .. وعرفت أنه كان يتابع مع والدتى ميعاد اجازتى من خلال خطاباتى لها .. فالمكالمات التليفونية .. غاية الصعوبة ولا تكفى لأن أقول لأمى كل ما أريده .

وكانت مقابلة مصطفى بتهويلته المعهوده وعباراته الكثيرة التى أفهم منها القليل .

- حمد الله على السلامه يا عص .. وحشتنا أوى .. بقى يا راجل ما تفكرش تكتب لى جواب .. وايه أخبار سجين زفتى .. على فكرة .. فيه خط رفيع قوى بين الجنون والعبقريـة .. وانـا اكتشفته فى العيله دى .. عيلة الزفتاوى .. قصدى الراوى .

ورغم ما أعانيه من تعب ومشقة السفر .. كنت سعيداً به .. وضحكت كثيراً لثرثرته .. مع أننى أود معرفة المزيد عن السجين الذى تركته هناك .. وتمنيت لو كنت أستطيع اصطحابه معى حتى أتناوله بالرعاية التى هو دائماً فى حاجة إليها .

-٢٠-

الاجازة .. كنت أقسمها سابقاً بين قضاء وقت منها مع أمـى .. وآخر مع أصدقائى والوقت الأكبر كان .. لـــ .. ولكننى أحـاول أن أنسى .. ولاحظت أمى ما يعترينى من تغييـرات .. وفـاتحتنى فـى موضوع علا .. وأكدت أن الله أراد بى خيراً .. لأننى لم أقترن بها .. فهى من طبيعة مختلفة .. طموحه .. أو طماعة .. فليسامحها الله .. وكانت المفاجأة .. أن أمها قد اقترنت برجل يكبرها بعشرين عاماً .. والمفاجأة الكبرى كانت الطامة الكبرى .. فزوجها والد عريس علا .. والزواج تحكمه مصالح مادية خالصة وأكدت للمرة الثانية أن الله أراد بى خيراً .

ان القطيعة جاءت من جانبها .. فهى لا تحب .. على حد قولهـا أن أظلم ولاد الناس .. والى حد كبير كلام أمى كان كالبلسم .. أرضـانى .. وأزاح الغمة من قلبى ونفسى .

-٢١-

قمت فى صباح اليوم قبل الأخير من اجازتى .. وكلى اصرار أن أتوجه الى زفتى لرؤية والدة صلاح .. ولا أعرف سبباً لتلك الرغبة الملحة .. اللهم انها أم .. مثل أمى .. فأمى دائماً قلقة كلما بعدت عنها .. فما بال تلك الأم التى تحتاج لإبنها كل الاحتياج .. ولا نعرف حقيقة أمره .. وماذا سيكون حالها لو عرفت ما رمته به الأقدار من قسوة .. من المؤكد أنها انسانة مسكينة .. بل عظيمة .. حتى تتحمل اللعنة التى أصابت العائلة .. الأب والابن .. والابنه ..

-٢٢-

لم أشعر بنفسى إلا فى القطار المتجه لزفتى .. بلد لا أعرف عنها شىء .. حتى أننى لم أكن أعرف من قبل أنها تتبع محافظة الغربية من الناحية الادارية .. ولكننى الان فى القطار .. والقطار قد تحرك بالفعل .. واقتربت من بلدة صلاح .. صلاح الذى كان حلماً فى حياتى .. أو كابوساً وسرعان ما أصبح واقعاً .. كالصديق أو الأخ الذى حُمل برسالة .. إلى أم تتمنى أن تعرف الحقيقة عن ولدها .

وصلت البلدة التى لاحظت أن ملامح الطيبة هى السمة الغالبة على أهلها ، فكلما سألت شخصاً عن مكان .. يتطوع أكثر من واحد للادلاء بمعلوماته عنه .. بل ان أحدهم صمم أن يرافقنى حتى بيت أسرة صلاح .

تلك الأم المسكينة .. تبدو كوردة جميلة ذابلة .. فهى تشبه صلاح الى حد كبير خاصة لون عينيها الجميلة .. وحديثها المشوب بالاستجداء .. فلا شىء على لسانها سوى السؤال عنه .. فهى لا تصدق أنه موجود بالتجنيد .. قلبها يحدثها بغير ذلك .. قلب الأم الصادق الذى يرى مالا تراه أعيننا .. ويشعر بمشاعر خاصة جداً ، لا يشعر بها الا قلب الأم .. حتى انها لم تصدق أننى زميله بالجندية .. لا أنا ولا صديقى مصطفى الذى سبقنى اليها .. وكذب عليها كذبته البيضاء .

وبنظرة سريعة للبيت المتواضع .. وقعت عيناى على صورة كبيرة للأب الذى تبدو ملامحه غاية الطيبة ، وعيناه يشع منها الذكاء .. ثم أبصرت الصغير .. راضى .. الذى لا يتجاوز العاشرة .. جالساً فى ركن من الصالة واضعاً يديه على وجنتيه .. كله أسى .. حتى بدت تجاعيد خفيفة تظهر على وجهه كالكبار .. ويبدو أنه يحمل هماً كبيراً .. طفل يحتاج لرعاية وتعليم وتدليل .. أصبح كالرجل الهرم .. ولم أتمالك نفسى وتساقطت الدموع من عينى .. وتذكرت أمى .. وحمدت الله على ستره لها ولنا .. ورحمة القدر بنا .. وأخى الصغير ممدوح الذى يقاربه فى السن لا يشغله شيئاً سوى اللعب واللهو .. والمذاكرة أحياناً .

وحاولت أن أعطيها مبلغاً من المال فى حدود مقدرتى .. ولكننى لمست فى وجه تلك السيدة المسكينة عزة نفس .. قد تمنعها من أخذه منى .. ألهمنى الله .. أن أقول لها ان هذا المبلغ أرسله صلاح . .

وأمام حاجة الأم أخذت المبلغ ولكن فى تردد شديد ، وانصرفت وأنــا أجرجر أقدامى .. ودعتها وخرجت .. وأثناء خروجى قــابلتنى فــى المواجهة فتاة جميلة .. محتشمة .. ملامح وجهها توحى بالجدية .. لم تنظر تجاهى .. ودلفت مسرعة الى البيت فأدركــت أنهــا قريبــة للأسرة .

-٢٤-

ما ان وصلت البيت حتى لاحقتنى أمى بالأسئلة التى تدل علــى قلقها البالغ .. فأنا أخذت قرار السفر لبلدة صــلاح دون مقــدمات .. وعدت متأخراً على غير عادتى .. ولم أعلق على حديث أمى .. بــل كل تفكيرى فى الأم المسكينة ، ثم نظرت لأمى .. وقارنت بين حــال الأمين .. كلاهما فقد الزوج .. وكلاهما يعيش من أجل أولادهمــا .. ولكن أمى حياتها واضحة ، وأولادها بين يديها .. اطمئنت الى حــد كبير على مسار حياتهم ، والأم الأخرى المسكينة مثقلة بــالمرض ، ومرض ابنها وابنتها التى لا تعرف عنهما شــيئاً .. فكلاهمــا تــرك المنزل ولم يعود .. لطمتها الحياة بمنتهى القســوة .. حتــى الابــن الصغير أصبح شبحاً لا يدرى لماذا يعيش وقد تحمل مســئولية تكــاد تهلكه .. ورأيته صامداً .. ولكنه تائه .

-٢٥-

مشوار العودة الثقيل جداً .. الطريق الطويل وعجلات القطــار الحديدية التى تضرب رأسى الذى لايخلو من التفكير .. فكيف سأقابل صلاح .. وقد كشفت حياته الغامضة التى تفــوق تصــورى .. هــل أصارحه بأننى قابلت أمه ؟ .. هل أحكى له عن حالتها .. أم أطمئنه

على حالتها .. هل سيغضب .. إذا ما قلت له عن تلك الزيارة .. فأنا أشعر أنني اقتحمت حياته الخاصة .. حتى لو كان الدافع انسانياً .. وماذا لو عرف زملاؤه المساجين أنني زرت أهله .. قد ينظرون للموقف نظرة انسانية .. نظرة كلها شهامة .. لكن ماذا لو عرف المأمور .. وزملائي .. فهل من المعقول في نظرهم أن تمتد الرعاية الانسانية للمساجين الى حد زيارة ذويهم .. من المؤكد أن هذا الأمر سيغضبهم ويضعني في موقف لا أحسد عليه وكفاني ما أنا فيه .

-٢٦-

هذه المرة شعرت بألفة بيني وبين طبيعة العمل الجديدة في حياتي .. وبدأت أمارس أعمالي بحب إلى جانب أنها مسئولية .. فالحياة المغلقة داخل السجن أصبحت عالماً خاصاً .. أعيش كل دقائقه .. وتوجهت لصلاح في المستشفى .. ووجدته ما زال تحت العلاج .. ويتحسن تدريجياً .. وسألته عن حياته الخاصة .. فالتزم الصمت .. وأخذت ألح عليه لأعرف شيئاً .. بعد أن صرنا كالأصدقاء .. وما ان بدأ يحكي حتى تغيرت ملامح وجهه .. فبدا كالمرضى العقليين .. حيث اتسعت حدقتا عينيه .. وبدا لسانه يرتعش .. وأسنانه تصطك ببعضها .. فأشفقت عليه .. وأنهيت الحديث بطريقة دبلوماسية .. وعاد إلى حالته الطبيعية .. وبدأ يبتسم .. فقررت ألا أفاتحه على الأقل مؤقتاً .. في ذلك الأمر .

في صباح اليوم التالي على عودتي من الاجازة .. وما ان توجهت لاستلام أعمال النوبتجية حتى طلبني السيد المأمور لمكتبه .. ما ان

توجهت اليه حتى فوجئت بوجود الفتاة التى رأيتها تدخل بيت صلاح عندما كنت فى زيارتهم .. قدمها السيد المأمور لى قائلاً :

- الأخت ناهد وحيد .. قريبة صلاح الراوى .. وجايه فى زيارة .

ولم تخرج منى كلمة .. فقد تعجبت لهذه المصادفة .. وأكمل المأمور كلامه معلقاً ..

- خريجة آداب علم نفس ومدرسة معارة فى دولـــة عربيـــة .. والأهم أنها صديقة مرفت بنت أخويا .. ويارب تكون مصاحب لها فى الزيارة .

وبدون أى تعليق اصطحبتها حيث ينزل صلاح بمستشفى السجن .

-٢٧-

صلاح ينظر لها فى ذهول .. وكأنه لا يعرفها .. وناهد .. لـــم تتحكم فى دموعها التى اهتز لها قلبى .. فهى فتاة حساسة وجميلـــة ويبدو أنها عاطفية الى حد كبير .. وانتهت الزيارة .. وصـــلاح لـــم يتفوه بكلمة ولم يعلق على أسئلتها .. واصطحبتها لمكتبى بالنوبتجية وكلى فضول لمعرفة الكثير عنه وعنها .. ولا أعــرف ســبب هــذا الفضول والاهتمام .

العيون الجميلة ذهبية اللون التى تشع ذكـــاء ودفئـــاً وحنانـــاً .. اغرورقت بالدموع .. انظر اليها متعاطفاً .. وأقارن بينها وبين علا .. شتان ما بين عقلانيتها الجامدة وعاطفة ناهد .. ناهد .. التى كرست عواطفها تجاه ابن عمتها الذى تحبه .. ورسمت مسار حياتها ليعيشا معاً فى سعادة .. وبيت زوجية رسما خطوطه بكل دقة .. لكن القدر لا

يعرف الشفقة .. فرق بينهما .. فى خلال عام واحد انقلبت موازين أمورهم .. هى سافرت لدولة عربية متعاقدة على أمل أن تجمع مالاً يقرب أحلامهم .. وهو مهندس فى مدينة طنطا يجمع قروشه القليلة من مرتبه الزهيد ليقوم بالانفاق على أسرته .. وأقل القليل للمساهمة فى تأثيث منزل الزوجية .. والمعنى طاهر وجميل .. والأسلوب نبيل .. ولكن !!

ذلك ما استطعت أن أستشفه من خلال حديثها .. والدموع تسبقها وتستوقفها عن استكمال حديثها ..

لم أطلب منها أن تروى لى .. فعيناها مليئتان بالحزن الذى يفيض بمعانى كانت جميلة .. وأصبحت كابوساً مفزعاً .

-٢٨-

عادت الفتاة قوية الإرادة .. مرهفة الأحاسيس إلى زفتى .. وأمامها مسئوليات جسام .. فعليها أن تجهز المال لتكليف محامى لاستكمال سير القضية من استئناف ونقض .. وما شابه ذلك من إجراءات قانونية ..

أشفقت عليها من ذلك المشوار الشاق الذى أقوم به شهرياً .. وهى حضرت فجراً .. وسافرت ظهراً فى نفس اليوم .. رحلة تمتد ثمانى وأربعين ساعة .. يالها من مشقة تتحملها فتاة كالفراشة الرقيقة .

أعادت تلك الفتاة الأمور إلى نصابها الحقيقى تجاه فكرتى عن المرأة .. فهناك ما يشابه أمى فى الوفاء وتكبد العناء فى سبيل الحب .. وقد حسدت صلاح .. نعم حسدته .. ووضعته فى الكفة الأخرى

للميزان .. ووجدت كفته هى الأرجح بالرغم مما يعانيه مـــن مـــرض نفسى وظروف قاسية .. فهناك الحب .. أسمى معنـــى يـــرجح كفـــة الحياة .

-٢٩-

أصبحت قضية صلاح الراوى .. هى الشغل الشاغل لـــى بعـــد أن تعاطفت .. بل بعـــد أن عشـــت وعايشـــت أدق تفاصـــيل حياتـــه .. واستدعيت النواصرى رفيق صلاح بالزنزانة .. لأسمع منه ما قالـــه صلاح له عن قضيته وظروفها وملابساتها .. قال النواصرى متعاطفاً على الرغم من حدته وصرامة ملامحه وقسوتها .

- أنا هاقول لسيادتك .. بس خللى الحديث ده فى الأمـــان ومـــا تستغلهوش ضده .

ونظرت له مبتسماً ومؤكداً .. ماذا يمكن أن أضيف إلى جريمته مـــن جرائم أخرى فقال فى حدة وإصرار .

- الأمر ما يخلاش .. أنا بقالى خمس سنين فى السجن ومر عليا ضباط كتير .. وركبت المساجين جنايات غيرالاحكام اللى عليهم .. آه .. نجاتى السروى .. كان جاى فـــى قضـــية تمـــوين .. وعقوبتها شهور .. الظابط ابراهيم .. لبسه قضية مخدرات .. آه .. محكمة السجن أصعب من محكمة القاضى يا عصام بيه .

وأمام عباراته لم أستطع أن أتفوه بكلمـــة .. فـــالامر لا يخلـــو مـــن تصرفات بعض الزملاء .. من قسوة للسيطرة علـــى الامـــور داخـــل السجن .. ولكنى سألته .. غيرة منى على أمانة وظيفتى .. عمـــا اذا

كانت القضية التى ألصقها الزميل ابراهيم .. ملفقة ؟! ولكنه صمت برهة وقال فى انكسار :

- ما انت عارف يا سعت البيه .. الأمر ما يخلاش من وجود الصنف بين المساجين .. عشان ينسوا اللى هما فيه .. هوه صحيح كان مولع سيجارة معمرة .. بس ما جتش عليه .. أمال حضرتك عاوز تعيش بمزاج من غير مزاج .

وقد تنفست الصعداء .. فالزميل لم يجاوز أمانة الوظيفة .. وقد يعيب عليه المساجين .. انه طبق القانون بحذافيره .. ثم عدت وسألته عن قصة صلاح .. فقال لى أنه نقل من طنطا .. من حقد زملائه عليه .. فهو قد أدخل بعض التعديلات الجوهرية فى رسم مبنى كبير .. أثار غضب الجميع .. فهو معروف بعبقريته .. وتم نقله ظلماً الى الصعيد .. وخارت قواه .. وامام التزاماته الأسرية .. ضعف فى أول محاولة رشوة .. فقد قام المقاول .. المجنى عليه .. برشوته لإنجاز عمل مخالف لا يؤثر على سلامة العمل .. ولكنه تجاوز .. وما ان ذهب صلاح لمعاتبته ورد ما أخذه من رشوة إلا وقام المقاول بنهره وسبه امام جميع العمال .. وتطاولت يده على صلاح الذى حاول منعه وازاحته عن طريقه .. فكانت الجريمة حيث وقع المقاول من اعلى المبنى .. ومات على الفور .. وشهد جميع العمال ضده .. عدا عامل واحد .. قال الحقيقة فى محاضر الشرطة .. ثم اختفى .

ونسيت تفاصيل تلك الجريمة البشعة التى كتب عنها انها قتل عمد .. مع أنها لا تتعدى القتل الخطأ .. كما ان موضوع الرشوة وتفاصيل العلاقة بين صلاح والمقاول .. لم يفرد لها أى شىء من قريب أو

بعيد .. فى المحاضر والتحقيقات .. وبحاسة ضابط البوليس الذى يبحث عن الحقيقة دائماً سألته بحدة وصرامة واصرار عن الشاهد المختفى .. فقرر النواصرى انه .. ولا حتى صلاح يعرفان عنه شيئاً .. اللهم اسمه فقط .. العوادلى .. وهو العامل الوحيد ضمن العمال .. من وجه بحرى .

-٣٠-

تحقيق العدالة .. أمر غاية الصعوبة .. والعدالة المطلقة لله وحده .. أختص بها .. وأصبحت من أسماءه وصفاته .. أما القاضى فيحكم بما أمامه من أوراق مكتظة بالتحقيقات وأدلة الإدانة والقرائن .. وشهادة الشهود .. وكل ما يعين القاضى على اصدار حكمه .. ناهيك عن كثرة القضايا التى يكلف بها القاضى .. وتنوعها أحياناً وتشابهها أحياناً اخرى .. وانا .. كانسان يعلم بل ويوقن ان هذا السجين حكم عليه بحكم قاسى .. قتل خطأ .. تحول لقتل عمد .. أما قضية الرشوة فهى لم تعد متكاملة الأركان .. وصلاح قد اعاد ما أخذه من مال للمجنى عليه .. وأكد النواصرى أن صلاح قرر أنه بالفعل أعادها والرجل أخذها .. وقفزت الى رأسى فكرة أستطيع أن أساعده بمقتضاها وهى حالته النفسية .. بل وقد تكون حالته العقلية وكيف يتم اثبات ذلك ؟ وهل يرضى صلاح أن يكون مجنوناً .. أم يفضل كونه سجيناً .. وقد توجهت لطبيب مستشفى السجن وسألته عما اذا كان صلاح يعانى من حالة نفسية ..أم ما أصابه من مس الجنون .. وأكد الطبيب أن الأمر يحتاج للعرض على أخصائى نفسانى أو عقلانى .. وهذا الأمر يتطلب اجراءات كثيرة ومعقدة .. حيث أن الطبيب

وعادت ناهد بعد ثلاثة أيام .. وتعجبت لتلك الفتاة الحديدية التـــى تتحمل مشقة ذلك المشوار الصعب .. من أجل حبها ..أو مـــن أجـــل صلة قرابتها بصلاح ؟؟؟..

فالأمر أولاً .. محنة لابن عمتها الذى لا يجد مـــن يقـــف بجانبـــه .. والحب الذى لا أدرى عما اذا كان تحول لعاطفة خاصة .. أو تعاطف مع هذا الانسان .. واصطحبت معها محام مشهور من بلدتهم .. وهو ايضاً كله حماس للوقوف بجانب صلاح .. ايماناً منـــه ببراءتـــه .. وانتماءً لابن بلدته .. فكم هى معانى جميلة نحن فى أشـــد الاحتيـــاج اليها .. معانى يحث عليها ديننا ..' ان الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه' .

وأخذت أوقن النظر فى ناهد .. تلك الإنسانة العظيمـــة .. وشـــعرت وكأنها معنى غاية السمو .. وطالما حلمت بها .. فهى كما توصـــف المرأة فى حالة الشدائد ' أنها رجل ' .. أنثى كاملـــة الأنوثـــة بكـــل معانيها .. تتصرف تصرف الرجال .. الرجال الأوفياء المخلصـــين .. وندر أن تجد مثلهم فى أيامنا هذه .. وهى قد لاحظت نظرات إعجابى بها وإنصاتى التام لحديثها العذب رغم مرارة الموقف ..ولم تسعفنى الكلمات لكى أعبر عن اعجابى بموقفها .. ولكن عينى سبقتنى لكـــى تعبر لها .. وقد فهمت .

وبدأ المحامى يحوط على كل دقائق القضية بعـــد أن اختلـــى بصلاح الذى تكلم رغماً عنه .. وكأنه لا يريد أن يخرج من السجن .. وكأنه زهد العالم الخارجى بكل ما فيه .. فقد كان كقطعة القماش

البيضاء الذى يضع كل ذى خطيئة بصماته السوداء عليها .. وكأنهم استكثروا أن يكون بينهم انسان بتلك المواصفات .. وكأنهم القاعدة وهو الاستثناء .. وله عذره أن يهجرهم .

-٣٣-

الأيام بدأت تعدو مسرعة .. وقد سافرت ناهد .. هى والمحامى بعد ان اتخذ اجراءات استئناف الحكم .. وقد اشرت اليه أن يتوجه لضابط المباحث حسام .. دفعتى .. الذى يعمل بمباحث المديرية للبحث عن الشاهد المفقود .. او المستبعد من قبل من له مصلحة فى ابعاده .. وبدأت اشعر بارتياح تام .. فأنا اشعر بسعادة حينما يخرج مسجون .. سواء بانقضاء العقوبة أو ببراءته .. وكم أكون حزيناً حينما يلحق سجين جديد بالسجن فيضيف الى مجموع المآسى .. مأساة جديدة ..

-٣٤-

وانا الان فى القطار .. اسابق أفكارى .. فأنا فى اشتياق لرؤية أمى .. وأخى .. وأصدقائى .. وخاصة مصطفى .. الصحفى الاديب .. كاتب القصة .. التى أعيش كل دقائقها .. ولا أنكر اننى فى اشتياق لرؤية ناهد بعيداً عن السجن .. وبعيداً عن قصة صلاح .. أريد أن أراها وهى تعيش فى دنيتها العادية .. أريد أن أعرف كيف تقضى يومها .. هل تفكر وتعيش مثل باقى بنات جنسها .. لا أظن ؟! من المؤكد أنها تتميز عنهم بخصائص كثيرة .. فأنا على ما أعتقد أنها تقضى الجانب الأكبر من وقتها فى القراءة .. وبالأخص الروايات الرومانسية .. رغم

جدية حديثها .. ونظرياتها .. وحتى نظراتها .. ولكن ؟ ... هى حبيبة صلاح .. هى المعنى الباقى له فى خضم مآسى حياته .. فهل استكثر ذلك عليه .. فالحب الحقيقى صعب .. بل محال أن نصفه .. أو نشبهه بأمور تراها أعيننا .. انه شدو لطيور تسكن الجنة ولا مثيل لها فى الأرض .

وتنبهت الى وجود صياح وصراخ بالنصف الأول من عربة القطار التى أستقلها .. وتابعت بنظراتى من بعيد .. فإذا بشخص أتذكره .. أو على الأقل أتذكر ملامحه يشتبك مع رجل وزوجته .. قادتنى حاسة الوظيفة الى التحرك اليهم لتحرى الأمر .. علمت أنه لص قام بسرقة حافظة نقود رجل ريفى بسيط يتوجه مع زوجته المريضة للقاهرة لعلاجها .. وأخذ الرجل يصيح انه استدان هذا المبلغ .. حاولت الامساك بذلك اللص الذى حاول أن يخلص نفسه بعد أن أخرج مطواه من جيبه وهدد الجميع .. لكننى استطعت السيطرة على الموقف وعليه .. فما كان منه الا أن سبنى وحاول أن يطعنى بالمطواه .. لكنى أحكمت السيطرة عليه تماماً واستدعيت حرس القطار .. ما ان أخذت بطاقته حتى تأكدت أنه هو .. مرسى الجيزاوى .. الذى خرج من السجن فى اليوم الثالث لاستلامى العمل بالسجن .. أنا أتذكره وهو لا يتذكرنى .. ولم تسعفه فراسته أن يدرك أننى ضابط شرطة .. وما ان علم بذلك حتى أصبح كالفأر فى يدى .. وتذكرت كلام طبيب السجن .. انهم فئة لا تحكمها مبادىء وقيم .. والسجن هو الدار التى تناسبهم وتجمعهم وتقى المجتمع من شرورهم ..

وتعجب حينما خرج هذا المسجون .. وكان يقسم وهـو علـى بوابة السجن أنه تاب لله .. والسجن كان له فتـرة اصـلاح .. ولكن لا اصلاح .. ولا صلاح .. يالأسف ..

-٣٥-

اعتاد صديقى مصطفى .. أن ينتظرنى على محطة القطار كلمـا حضرت أجازة .. وأنا هذه المرة سألته عن قصة سجين زفتـى التى نسج خيوطها .. فلاحظت أن حماسه قد فتر لهذه القصة .. بل انه توقف عند النهاية التى اقترح لها ثلاثة خيارات .. إما أن يهرب من السجن .. قلت له ان ذلك من قبيل المستحيل لأنه يجد منتهاه فى السجن .. وقال :

– ايه رأيك لو خليته ينتحر .

وشعرت أنها نهاية مأساوية .. لا أشجعها حتى لو كانـت فـى خيال كاتب .. ثم أضاف خياراً أخير :

– طب ايه رأيك لو اتجنن وقضى بقية حياته فـى مستشـفى الأمراض العقلية

وقلت له .. انها نهاية لا أتمناها لهذا المسكين .. فالجنون الذى يأتى نتيجة لعبقريته .. ظلم كبير .. فقال فى عدم حماس:

– إذاً .. هاترك النهاية .. حسب ما يكون الأمر فى الواقع وأما حكاية بطلة الرواية التى ظهرت .. مجرد ان أخبرت مصـطفى بها وأسهبت فى وصفها .. الا وعادت له الحماسة أكثـر مـن

..فأنا وسط أسرة جديدة .. أحببتها .. وأصبحت معنى جديداً فى حياتى .

-٣٨-

ووافقت ناهد أن تصطحبنى لإحدى كازينوهات البلدة القريبة منهم على النيل .. وكان كل حديثها عن صلاح .. حبها لـه .. وتأثرها بمأساة الأسرة التى ورثت المرض العقلى عن الجد ثـم عن الأب .. ثم تحدثت عن أخته التى تزوجت خفية عن أهلهـا من رجل استغل مرضها .. واستغلها حتـى ضـاقت بالحيـاة ..وهربت ولا يعرف أحد وجهتها .. وظل هذا الأمر هو الآخـر خفياً عن الأم المسكينة .

وعرفت أنها كانت هى الأخرى تتميز بعقلية فـذه .. ولهـا ابتكارات واختراعات فى مجال الماكينة الزراعية .. كما أن الأب هو الآخر قد صمم ماكينة خياطة من اختراعه ذات مواصـفات خاصة .. والأمر ينتهى دائماً بحالة اكتئاب .. ثـم تصـرفات لا واعية .. وحتى الآن .. لم تصب تلك اللعنـة الطفـل الصـغير راضى .. وان كان أحياناً تنتابه حالات اكتئاب تجعله ينزوى فى ركن من أركان المنزل ساهماً لمدة ساعات طويلة .. وحاولـت أن أبدى اعجابى بناهد لأخلاقها ورقتها وتميزهـا عـن بنـات جنسها .. فلم أجد منها آذاناً صاغية .. ولم تحرك ساكناً .. فلا يشغلها شىء سوى صلاح ومأساته حينهما .

-٣٩-

وعدت أفكر فى تلك الفتاة التى تتمسك بحبها لهذا الحـد .. وقد لمت نفسى .. على أنانية تملكتنى وسيطرت علـى فكـرى للفوز بتلك الفتاة التى طالما تمنيت أن تكون لى وتعيش حيـاة سوية فهى عطاء بلا حدود .. ولكن الحدود تحد بـين رغبـات الإنسان وواقعه .. خاصة أن أحاسيسى بدأت فى التحرك تجاهها وبشكل لم يصادفنى فى حياتى .. حتى حبى لعلا .. لم يكن بهذا التوهج .

-٤٠-

واللجوء للصديق فى تلك الأمور ضرورة ملحـة .. حتـى يفسر لى مالا أستطيع تفسيره .. أو بمعنى آخر .. ما أحاول أن أحبط تفسيره .. فالانسان فى العادة لا يحاسب نفسـه حسـاباً عادلاً .. وتوجهت لمصطفى وصديقى إبراهيم العاصى .. وخليل حسنين .. وتوجهنا جميعاً لنادى الشرطة .. فإذا بى أجد عـلا وزوجها يجلسان فى جانب بعيد من النادى .. وكلاهما يتحـدث مع الآخر فى حدة وكأنهما على وشك الاشـتباك .. نظـر لـى مصطفى وهمس فى أذنى قائلاً :

- أصل الحكاية .. مش أى حب .. ومش أى شخص ينحـب .. ربنا موزعها بعدالة .. يا فلوس .. يا حب .

وقد ارتحت الى حد كبير لكلامه .. وشعرت من تلك اللحظـة أن علا قد سقطت من قلبى وعقلى للأبد .. ثم طلبت من الأصـدقاء أن أخلو بمصطفى .. لأخذ رأيه فى القصة التى يكتبها .

بمجرد أن فاتحت مصطفى فى موضوع ناهد وأحاسيسى تجاهها انفتح فى الكلام وكأنها مقالة قد أعدها من قبل وعلق بأسلوبه الصريح المهذب الذى لا يخلو من طرافة :

- شوف يا عصام .. لولا انك انسان شفاف .. ومتربى على مبادىء .. وخالى من العقد .. ما كنتش صاحبتك..

ونظرت له وابتسمت حتى يختصر حديثه الدبلوماسى الذى لا يخلو من إطراء ومديح وقال فى تأكيد :

- انت ظابط بوليس ودايماً انت اللى بتسأل الناس إنما المرة دى أنا هاجاوب على تساؤلاتك من غير ما تتكلم .. لأن اللى فى دماغك أنا قاريه كويس .. وكويس أوى.

وضحكت من أعماق قلبى على طريقته فى الحديث التى ذكرتنى بالفنان عبد السلام النابلسى عندما ينظر لك لتحليل المواقف والأمور .. ولكنه فى إصرار أكمل حديثه :

- اضحك ويا ريتك دايماً تضحك .. عشان تشيل الهم اللى حملته لنفسك .. شوف يا عصام .. انت حبيت ناهد .. وناهد حبته .. سجين زفتى .. وحبك لها كان طوق نجاه للخروج من الأزمة العاطفية اللى انت مريت بها .. واهو انت شفت .. الحب الأول قدام عينك وهو منهار على أول أعتاب الزواج .

ونظرت له فى جدة .. فهو قد أقر كل أفكارى وأكد لى أنه الصديق الحق .. وعندما تكون الصداقة حقه .. تمتزج الأرواح وتكاد تكون

روح واحدة .. وهو بالفعل حل مالم أستطيع تحليله ..
فالانسان دائماً يحتاج لقرين .. يفسر له دون أن يتكلم ..
فالحديث مع النفس ومع الغير يضيع معانى كثيرة تحملها
الأنفس .. فيها ما هو سلبى .. ومنها ما هو ايجابى ·

-٤٢-

وانتهت الاجازة .. ومثل كل مرة العودة ثقيلة .. خاصة أن
أمى أصبحت فى حالة أفقدتنى الشعور بالاطمئنان تجاهها ..
وسرعان ما أجد نفسى فى القطار .. والقطار يتحرك فى رحلته
الطويلة .. وهأنا قضيت أربعة أشهر من المدة .. والشتاء برده
قارص ..وأكثر برودة فى مكان وجهتى .. والأمطار بدت غزيرة
على غير العادة فى مثل هذا الوقت من العام حتى أننى شعرت
وأن القطار يكاد ينزلق من على القضبان .. ودار الحديث بين
كمسارى القطار .. وآخر عن الأمطار التى هطلت بالأمس
بغزارة على البلدة الكائن بها السجن .. أيضاً على غير العادة ..
فالأمطار نادرة الحدوث ومن غزارتها أصبحت كالسيول التى
جرفت قرى بأكملها .. وقد انقبض قلبى لهذا الحديث .. فأنا
أحب الشتاء بأمطاره التى تذكرنى بمدينة الإسكندرية الجميلة ..
حينما كان أبى يعمل بها وأنا فى الثانية .. ولكن الأمطار بدت
فى ازدياد لدرجة أنها كانت كطلقات الرصاص فى الزجاج ..
ولمحت فتاة تأتى ناحيتى .. تخيلتها ناهد !! .. وما ان اقتربت
منى أدركت أنها تشبهها الى حد كبير .. أو على الأقل من وجهة
نظرى .. بدت كل فتاة جميلة .. هى ناهد .. ثم عدت أتذكر

حديثى مع مصطفى عنها .. وعدت أتذكر الوقت الذى قضيته معها فى الكازينو .. وأتذكر همساتها ولفتاتها .. وحزن عيناها الجميلة .. وكأنها حلم .. وبالفعل ..أصبح حلماً ..قد لا تواتينى الفرصة مرة أخرى لأحلم به .. أما علا .. فقد انتهى حلمى بها إلى الأبد بعد أن لاحظت تعاستها مع من اختارته .. وهذا ليس تشفياً فيها .. ولكنها حقيقة قد تعرت أمامى تماماً .

-٤٣-

يالهول المفاجأة .. قوات الأمن تحاصر السجن .. وسيارات كبيرة وكثيرة لمسئولين بالوزارة .. ماذا حدث؟! ما من يجيب .. فالكل حزين لكننى أدركت لأول وهلة أنه هناك خطب عظيم وسرعان ما عرفت الحقيقة المفزعة .. حدث مس كهربائى بالسجن نتيجة السيول والعواصف والأمطار كادت تؤدى بحياة أغلب المساجين .. مما تسبب عنه هروب بعض المساجين وعلى رأسهم النواصرى .. ووريدى هريدى .. و ..معقول .. صلاح الراوى .. كيف وهو كان بالمستشفى .. لكن هذا ما حدث حينما فتح الصول بيومى العنابر التى وصل لها المس الكهربائى .. مما ترتب عليه هرج ومرج وإطلاق أعيرة نارية من أفراد الحراسة وإصابة بعض المساجين .. يالها من مصيبة .. مصيبة .. جاءت نتيجة لتخطيط القدر العجيب .. لم يدور بخلدى حدوث ما حدث .. حقاً اننى أراقب التوصيلات الكهربائية أثناء نوبتجيتى .. ولكن لم يأت بخاطرى حدوث هذا مطلقاً .

وبدأت التحقيقات لتحديد مدى الإهمال من ضابط منوب السجن وأفراد الحراسة .. حتى المأمور ونائبه .. انه أمر تضيق له النفس .. فالكل يعمل كترس فى آلة تدور فى سيولة .. والكل يبذل قصارى جهده لعلمهم بمدى جسامة المسئولية .. ولكن الأقدار تحف بمن تشاء .. ونحن جميعاً فى موقف لا نحسد عليه .. وأكثر ما أثار دهشتى .. أن الصول بيومى .. الرجل الصامت الحازم الصلد .. قد جهز نفسه للمحاكمة العسكرية .. هذا الرجل الذى يقضى نوبتجيته بجدية وصرامة وكل المساجين تهابه .. وكل الضباط تحترمه .. لاحترامه لنفسه ووظيفته .. وقارنت بينه وبين الصول عواد .. الرجل الطيب المسن الذى يعد الساعات حتى تنقضى ميعاد نوبتجيته وما أثار دهشتى أكثر أن المساجين أجمعوا على أمر غاية فى الغرابة .. أن الصول بيومى تدور الشبهات حول مساعدته لهؤلاء المساجين على الهرب .. وكما يقول المثل (طلعوا فيه القطط الفطسانه) ومنهم من اتهمه بإحضار المخدرات للمساجين .. ويقبض فى المقابل مبالغ مالية طائلة .. وأنه يخفى ضعف نفسيته خلف ستار قوة شخصيته والتزامه الظاهر الذى لا يدعو لأى مجال للشك ..أما الصول عواد الذى يعتاد أحياناً مقاسمة المساجين فى أكل الزيارة ..أو مشاركتهم فى شرب سيجارة .. هو راجل يخاف من المسئولية ويعرف حدودها ولا يتجاوزها ..

وهذا الأمر قلب موازين كثيرة فى حكمى على الأشخاص .. وكاد أن يهز مبادىء تعمقت فى نفسى وأصبحت مساراً لتكوين شخصى .. خاصة أنى شعرت بغيرة شديدة تجاه مهنتى التى أعتز برسالتها .. فكم من أشخاص يشوهون تلك الرسالة .. خاصة من ذوى الوظائف الصغيرة .. ولكنى أعزى نفسى بأن " كل شغلة فيها اللى مكفيها " والحاجة أحياناً تدفع الإنسان للخروج على مقتضيات وظيفته .. لكن ليست كل المقدمات الفاسدة تؤدى إلى نتائج سلبية .. فبعض المقدمات الإيجابية وحتى لو كانت قليلة تؤدى إلى نتائج طيبة .. لأنها تصدر من ذوى ضمائر ومبادىء .

-٤٥-

بعد أن تم إنهاء التحقيقات وتلافى السلبيات وأوجه القصور فى نظام الحراسة وتأمين السجن .. خاصة توقعات حدوث الكوارث التى لم تكن فى الحسبان .. لندرة حدوثها .. بل هى المرة الأولى التى يؤدى سوء الأحوال الجوية ..أو الكارثة الطبيعية لتلك المصيبة .

وبدأ إعداد فريق بحث لإعادة المساجين الهاربين وخاصة النواصرى وويدى هريدى .. وصلاح الراوى الذى يجتاحنى شعور بأنه لم يهرب بإرادته .. بل خطفه النواصرى وشريكه .. لتعاطفهم معه .. غريب أمر المساجين حينما يتعاطفون مع بعضهم لعبور أزمة حبسهم وقيدهم .. مهما كان جرمهم .

-٤٦-

تشكل فريق البحث من عناولة ضباط مباحث السجون ومباحث المديرية وقوات المطاردة النظامية .. وأنا ..

فقد تم اختيارى ضمن فريق البحث .. حتى أكون حمامة السلام فى حالة الوصول إليهم لأتمكن من التفاوض معهم .. فقد حسب لى أننى قريب منهم .. وقد يخضعون لأوامرى ..وتعجبت .. فالأمور فى الغالب الأعم تقاس بأكثر من مقياس .. أو توزن بميزانين .. فقد يعاب على تقربى منهم .. وقد يعتبره الآخرون دبلوماسية أو سياسة .. وأنا أرفض ذلك .. فأنا يدفعنى منطق التعامل مع البشر على كونهم بشر .. ومن المؤكد فيهم جانب من الخير .. هو دافعهم لكى يحبونى .. أو على الأقل يعتبرونى شخصاً محايداً داخل أحجار ذلك السجن الذى يحد حريتهم .. ويؤدى بأنفسهم التى سرعان ما تضعف .

-٤٧-

التحريات هى بداية التوصل للمعلومة .. ومصدرها عادة .. المخبرون .. وأحياناً المرشدون .. والمرشد عادة صاحب مصلحة .. إما مادية فى صرف مكافأة .. أو نفسية للتخلص من غريم له فى نفس الكار .. وأتذكر مقولة أحد الضباط المحنكين .. ان نظرية المرشد والتعامل معه تتلخص فى الفائدة والضرر .. فما يفيد المرشد يضر العمل .. وما يضر المرشد يفيد العمل .. وبالمعنى الدارج .. اللى ينفعنى يضرك .. واللى يضرك ينفعنى .. وعادة يتم التخلص من المرشد فى وقت ما .. وتسمى

هذه الظاهرة بـــ " حرق المرشد " وذلك حينما ينكشف أمره .. بما يضر صالح العمل .. إذا ما أصبح مصدر قوة وتسلط علـــى الآخرين ..

وكان المرشد .. صبحى الضحاوى .. أول من تطوع للإرشاد عن النواصرى .. فله فى رقبته ثأر .. لم يستطيعوا أخذه منـــه لسطوته وجبروته .. فهو مجرم ضليع .. وقاطع طرق .. ولص مواشى .. وبلطجى يفرض سطوته على مجرمين المنطقـــة .. وحدد المكان .. مغارة فى المنطقة الجبلية بين قنا .. وحـــدود البحر الأحمر .. وهى منطقة مليئـــة بـــالمجرمين.. خاصـــة .. مهربى المخدرات عن طريق الصحارى .

وبدأ وضع الخطة .. وفوجئت أن المقدم ياســـر .. ضـــابط مباحث المصلحة .. يصمم على مهاجمة الوكر .. وأيـــاً كانـــت الخسائر .. وشعرت أن دورى على حسب تلك الخطـــة .. دور هامشى .. مجرد ضابط نظامى ضمن قوة الحملة .. وأنا أجيـــد الرماية .. ولكن .. هذا ليس دورى فاللجوء للقوة هى المرحلة الثانية .. فى حالة عدم امتثال الهاربين لتسليم أنفسهم .

-٤٨-

تجمعت القوات وحاصرت المكان .. وتحددت ساعة الصـــفر فى أول ضوء للشمس بعد أن يتم إنذارهم بواسطة الميجافون " ميكروفون بالبطارية " .. وكان يرافق الحملة دليل للصحراء .. حذر القوات اليقظة التامة لوجود ذئاب مفترسة بتلك المنطقة .. ولم تمض دقائق إلا دوت صرخة من أحد جنود قوة المطاردة ..

هجم عليه أحد ذئاب الجبل .. وأحدث به إصابات بالغة الخطورة .. مما أثر فى نفسية باقى القوات .. مما يعوق تنفيذ المأمورية.

ولكن العقيد إيهاب رئيس المأمورية صمم على إتمامها قبل أن يفروا من الجبل .. وأمرنى بالتحدث فى الميجافون لإنذارهم مع التعريف بنفسى ..ولكن المقدم ياسر اعترض .. وصمم أن يقوم هو بإنذارهم بلهجة كلها تهديد وتحـد .. ومـا ان أخـذ الميجافون وبلغ الهاربون بالإنذار الحاد حتـى انهالـت علينـا طلقات نارية كثيفة ومتلاحقة .. أصابت ثلاثة جنود ومخبـر .. وشعر المقدم بخيبة أمل .. خاصة أن الدليل أكد أنهم يروننا أكثر مما نراهم لخبرتهم بالمنطقة الجبلية .. وعيونهم التـى تفـوق عيون الصقور .

ثم سمعت صرخة لصلاح .. فتأكدت أنه بالفعـل معهـم .. وخمنت أنه أصيب بحالة عصبية نتيجة لسماعه صوت الأعيرة النارية .. وطلبت من العقيد إيهاب أن أقوم بدورى المكلف بـه فى المأمورية .. فسمح لى .. وأخذت الميجافون مـن المقـدم ياسر وهو ينظر لى شذراً .. وردد فى تأكيد :

- برضه حنقبض عليهم بالقوة يا سيادة النقيـب .. والمعركـة الحقيقية كر وفر .. ولكن العبرة بالنتيجة .

ولم أعلق على كلامه .. فهو شبيه بكلام كل المعارضـين لـى وكأننى أفعل الشىء غير المألوف دائماً فى عرف الوظيفـة .. وتمنيت من الله أن يكلل مهمتى بنجاح .

وبدأت أوجه انذارى لهم بالاستسلام .. لخطورة الموقف .. وطلبت منهم التوجه اليهم لإقناعهم .. وأخبرتهم أنه فى حالة الموافقة يطلق أحدهم عياراً نارياً فى الهواء .

ومضت عشرة دقائق .. دون الرد من جانبهم .. وكأنهم عشر ساعات أو عشر سنوات .. وشعرت بخيبة أمل .. ولكن على أن أنتظر .. وفى وسط الهدوء بدأت أسمع صوت الرياح .. ثم صرخة أخرى لجندى آخر وتوجهنا لتحرى الأمر .. فإذا به تعرض للدغة الطريشة (من الزواحف التى تشبه الثعبان تطير فى الهواء ثم تلتصق بوجه الضحية) وهى إصابة نادر الشفاء منها .. وتم نقله إلى المستشفى على الفوز .. ثم سمعت صوت العيار النارى ...

وعاد الأمل لي من جديد وتوجهت إلى المغارة التى ترتفع عن سطح الأرض بما يزيد عن العشرة أمتار .. وما ان اقتربت .. تقدم النواصرى منى .. وكان النهار قد أوشك .. ورحب بى .. وكأننى ضيف أو زائر .. ودخلت المغارة .

-٤٩-

صلاح يبكى بنحيب .. وقد جرى ناحيتى واحتضننى .. ولكن النواصرى نهره .. وأنبه .. مبدياً الندم على اصطحابه معهم .. وشعرت بالفعل أن صلاح قد تم خطفه رغم عنه .. وحاولت إقناع النواصرى بتسليم نفسه .. هو ووريدى هريدى . ومعهم شخص آخر قد هرب معهم

.. ولكن النواصرى نظر لى فى حدة وقال وهو يضغط على أسنانه :

- شوف يا عصام بيه .. احنا بنحبك .. وبنأمن لك .. لكن مش هنحبك أكتر من نفسنا .. ولو عقوبتى باقى عليها سنة .. والا اتنين .. كنت جيت معاك .. لكن دى تأبيده .. وانا بقى أفضل أمـوت بـره السجن .. وما متش جواه من الجبن والخوف .

وتذكرت كلام الدكتور .. وكلام المأمور ونائبه .. وكلام المقدم ياسر ضابط المباحث .. انهم بالفعل فئة قد أثر اجرامها على انسـانيتها .. ولكن صلاح ما وضعه ؟!

وقال النواصرى فى حدة بالغة :

- صلاح معانا يا نعيش سوا يا نموت سوا ..

ونظرت لصلاح مستفسراً .. ولكن لم ينطق .. بل أصابته هستيرية .. وكأنه لا يعرف مكانه ولا زمانه ولم يكن أمامى شئ سوى العـودة بعد أن تسرب اليأس لنفسى ونزلت من الجبـل أجرجـر أقـدامى .. وأخشى مواجهة المقدم ياسر .. فهو الآن المنتصر وانا المهـزوم .. وخارت قواى وقيمى التى طالما تمسكت بها .. وما ان وصلت للعقيد ايهاب رئيس المأمورية فنظر لى متعاطفاً معلقاً :

- هما كده ما عندهمش مبدأ .. لكن رجوعك بسلام .. أكد لى أنك بالفعل ضابط كويس .. ولك كلمتك بين المساجين ..

ثم نظر للمقدم ياسر الذى أخرج مسدسه ووضعه فى موضع التنشين وقد أشار للمخبرين بالتحرك تجاه المغاره .. ولكن كانت المفاجأة .. وريدى هريدى وصلاح والسجين الثالث .. ينزلون من المغارة رافعين

أيديهم لأعلى فى حالة استسلام .. فتنهدت .. وكادت دموع الفرحة تفر من عيناى .. فأمر العقيد ايهاب .. المقدم ياسر بالتوقف .. وتقدم الثلاثة من القوات وقاموا بتسليم أنفسهم .. ثم أخذ صلاح يصيح فى هستيريا بالغة .. وخطف بندقية أحد الجنود محاولاً الانتحار .. ولكن تمكن أحد المخبرين من خطف البندقية منه بسرعة البرق ..

وأخذت أفكر فى نهايات قصة سجين زفتى التى يكتبها مصطفى .. وكأنه قرأ شخصية صلاح دون أن يراه .. لقد تحقق ما تنبأ به من هروبه ومحاولة انتحاره .. بالخيال المؤلفين ؟!!

وتحركت القوات تجاه المغارة وحدث تبادل نيران بين النواصرى والقوات .. وانتهت بمصرع النواصرى .

-٥٠-

عدت إلى السجن .. كمن عاد من الحرب منتصراً .. فالمحافظة على كرامة الوظيفة .. وثبوت قدرتها على حمل الرسالة الأمنية أكبر انتصار .. جعلنى أفخر بانتمائى لوظيفتى .. وقد تساوت كفتى الميزان .. فأنا حققت ما كلفت به .. بعد أن عدت بالمساجين الهاربين بالتفاوض .. وتمكن المقدم ياسر من تحقيق منطق القوة لمن يقاومها بعد أن لقى النواصرى مصرعه .

-٥١-

ساءت حالة صلاح الصحية للغاية .. وتم عرضه على النيابة التى أمرت بترحيله لمستشفى الأمراض العقلية .. وتحققت نبوءة زميلى مصطفى كاملة .. وكم حزنت لأمر هذا المسكين .. وكيف سأواجه أمه

.. وناهد .. بما انتهى أمره اليه .. وتمنيت أن يلهمهم الله الصبر والسلوان .. فقد مات حياً .

-٥٢-

قامت المأمورية فجراً لترحيل صلاح الى مستشفى الأمراض العقلية بالقاهرة فى سيارة خاصة برئاسة نائب المأمور وأنا برفقتهم .. وكان المشوار طويلاً وشاقاً .. وكنت أشعر بالسعادة فى سفرياتى السابقة كلما اقتربت من القاهرة .. ولكن هذه المرة .. كنت أشعر أنه كلما اقتربت من القاهرة ينقبض قلبى .. فأنا لم أتمنى أن تكون هذه نهاية هذا المسكين الذى ينظر لى طول الطريق فى وجوم .. وكأننى السبب فيما هو فيه .. وياليتنى كنت أستطيع أن أقدم له شيئاً .. ولكنه القدر بقسوته يفوق أحلامنا وتخيلاتنا وأمانينا .

-٥٣-

وصلنا المستشفى فى الواحدة ظهراً .. ما ان انتهينا من إجراءات تسليم صلاح .. وقبل أن أنصرف .. جرى ناحيتى وتعلق بى باكياً وأخذ يصيح فى هستيريا بكلمات مزقتنى .. كلمات تحملنى مسئولية إحضاره لهذا المكان.

أرجوك يا عصام بيه رجعنى السجن .. السجن أرحم من مستشفى المجانين .. أنا عاقل .. أنا عاقل مش مجنون .. أنا قاتل مش مجنون .. أنا قاتل مش مجنون .. الرحمة .. الرحمة بيا وبأمى وأخواتى ..

وخلصه الممرضون منى بالقوة واصطحبوه للداخل وهو يجرجر أقدامه على الأرض منهاراً .. ورغماً عنى فرت الدموع من عينى .. وكأنه أخ حبيب خُطف منى .. ونظر لى نائب المأمور متعاطفاً وقد تأثر هو الآخر وقال لى بصوت مخنوق :

انت انسان عظيم يا عصام .. انت المفروض كنت تبقى دكتور .. لكن احنا محتاجينك ونتشرف بوجودك كضابط انسان فى أسرة الشرطة .

-٥٤-

وتوجهت الى منزلى وكلى أسى .. ولاحظت أمى .. وحكيت لها .. فكم تأثرت تأثراً بالغاً .. وعانقتنى وقبلتنى .. ودعت لى من عميق قلبها بألا يمسنى سوء .. وجعلتنى أشعر بالفعل أن صلاح إبن لها .. وأخ لى .. افتقدته للأبد .

-٥٥-

المأمورية ثلاثة أيام .. انقضى منها يوم وباقى يومان .. لم أتوان فى السفر إلى زفتى لإخبار ناهد حتى نتمكن من متابعة حالة صلاح .. وكم كان هذا المشوار شاقاً على نفسى .. ما ان وصلت لأعتاب البيت حتى تسمرت قدماى .. فكيف سأواجه أمه .. وكيف سيكون وقع أثر الخبر على مسمع ناهد .. وفكرت أن أعود لكننى اعتبرت أن ذلك من مهام وظيفتى .. فيجب أن يعلم أهل المسجون بهذا الإجراء الذى اتخذ حياله .. وصعدت درجات السلم فى ثقل .. وصلت إلى باب الشقة .. ترددت مرة أخرى .. بصعوبة بالغة تمالكت نفسى وطرقت الباب .. فإذا بى أجد فتاة

تشبه صلاح إلى حد كبير تفتح الباب وتنظر لى مستفسـرة .. التزمت الصمت فسألتنى فى حيرة من أكون ؟ .. فطلبت منهـا مقابلة والدة صلاح .. وأخبرتها بأننى زميله فـى الجنديـة .. فأفسحت لى الطريق دون تعليق .. ودخلت فإذا بى أجد أم صلاح تنظر لى فى لهفة وتبكى وكأن قلبها قد شعر بشىء .. أما الفتاة فقد دخلت إلى إحدى الحجرات دون تعليق .. وأخـذت أتابعهـا بنظرى فى فضول .. فأخبرتنى الأم وهى تبكى بنحيب

أنها أخت صلاح .. وقد عادت من غيبتها منذ أيام بسيطة .. فقلت فى نفسى .. سبحان الله .. أتت فى الوقت المناسب .. فكم تسعنا رحمة الخالق .. ثم سألتنى الأم عن صلاح وهى تـتلجلج .. كأنها تستفسر عن شىء تعلمه .. ولكنها تتردد فى أن تعرفه .. قلت لها وعيناى فى اتجاه الأرض .. أنه بخيـر .. وأخـذت أنظر يميناً ويساراً لعلى أجد ناهد .. ومرت عشرة دقائق كاملة .. والأم تحاصرنى بأسئلة لم أستطع الرد عليها .. وقد أدركـت أن عودة أخت صلاح .. تعنى .. قلة حضور ناهد لبيت عمتهـا .. لكن سرعان ما سمعت طرقات الباب .. وانتظرت أن تـأتى أخت صلاح لتفتحه .. لكنها لم تحضر .. فأدركت أنها ما زالت فى حالة غير طبيعية ..

حاولت الأم فتح الباب .. لكننى نهضت مسرعاً وفتحتـه .. فإذا بى أجد صديقى مصطفى .

ونزلت أنا ومصطفى من البيت .. فكم طال انتظارى لحضور ناهد .. وقفنا أمام البيت وسألته عن سبب حضوره .. فـأخبرنى أنـه يأتى بين الحين والآخر لزيارتهم .. وأنه عرف بموضوع عـودة أخت صلاح التى تصيبها الحالة أحياناً .. وتفيق أحياناً أخـرى .. وسألنى عن سبب حضورى لأم صلاح فى هـذا الوقـت .. فانـه يعرف أن ميعاد اجازتى المجمعة لم يحل بعد .. وقبل أن أرد عليه .. حضرت ناهد .. التى نظرت لى فـى دهشـة وسـألتنى فـى استفسار يشوبه القلق :

- ايه يا عصام بيه .. فيه حاجة حصلت لصلاح ؟! .. وأيقنت أن قلب الأم وقلب الحبيبة أقوى من أى جهاز أستشعار ..

وصمت برهة .. وأطرقت .. فألحت فى السؤال وفى قلق بالغ:

- صلاح جراله حاجه يا عصام بيه ؟!

ومصطفى ينظر لكلانا .. وكأنه يسجل حديثنا .. وسأل هو الآخر فى فضول :

- ايه يا عصام .. حصل لصلاح حاجة من اللى قلتها لك ؟!

ونظرت له .. وقلت له إن نبوءته قد تحققت الـى حـد كبيـر .. واستشفت ناهد بذكائها انه أصابه مكروه .. وأخبرتها بما حدث .. كأن الكلمات تنتزع من صدرى انتزاعاً .. وكاد يغمى عليها .

-٥٧-

انتهت المأمورية .. وقام مصطفى بتوديعى حتى محطة القطار بعد أن التهم سطور قصته من حديثى التهاماً .. والغريب أنه لم يتأثر بالأحداث التى مر بها صلاح .. وكل ما كان يهمه بالأمر نسج خيوط روايته .. وكلى أسى .. فكل مرة كنت أعود لأجد هذا المسكين .. ودافعه بالأمل على مواصلة الحياة .. الحياة التى ضاعت منه .. وضاعت معها الأسرة .. مسكينة أمه .. وحبيبته ناهد .

-٥٨-

دخلت من باب السجن .. وشعرت تلك المرة أننى مسجون .. عاد الى السجن ليكمل العقوبة .. فكل شىء فيه أصبح موحش حتى المساجين الذين كنت أتعاطف معهم .. نفذ صبرى تجاههم .. وشعرت وكأنهم كلهم مذنبون حقاً .. وقد لاحظ الجميع تغير أحاسيسى تجاههم .. حتى المأمور لامنى على هذا .. وردد قائلاً :

كثيراً ما ننخدع فى أناس .. كانوا لنا مثل وقدوة .

وعدت أمارس عملى من خلال نوبتجيات السجن التى بدت أيامها ولياليها طويلة وشاقة على نفسى .. فأنا الى حد كبير قد فقدت جانباً كبيراً من ثقتى فى المساجين .. وشعرت أن ارتباطهم بى ليس إلا مصلحة خاصة لهم .. فهم فى غاية القسوة .. ومع ذلك يريدون أن يعاملوا معاملة إنسانية .

ما ان ينتهى وقت النوبتجية .. أعود للإستراحة وأدعو الله أن أنام فالنوم قد جافانى .. وإذا ما خلدت للنوم .. أجد صلاح فى أحلامى يصرخ .. وناهد هى الأخرى تلومنى .. وتحملنى مسئولية الزج به بمستشفى الأمراض العقلية .. ولم أعد أطيق شىء .. فالأيام تمر سقيمة ثقيلة أكثر من ذى قبل .. وكأن ما أصاب صلاح .. كاد يصيبنى .. وألوم نفسى على ذلك القدر الكبير من الحساسية الذى اعترانى .. وقررت بينى وبين نفسى ألا أحمل نفسى مالا أستطيع تحمله مثل باقى الزملاء بالسجن .. فكم أنا أحسدهم .. لأنهم استطاعوا أن يفصلوا بين واقعهم الخاص .. وبين العمل الذى استغرقنى كلية .. فأنا أعيش كل مآسى المساجين .. وكأننى السبب فى سجنهم أو على الأقل مسئوليتى .. لأهون عليهم ما يقاسونه من آلام نفسية .. فأصبحت أترجى الأيام أن تمر مسرعة .. لأعود لعملى بالقاهرة .. فالعمل بالمرور أكثر سلاسة .. وأقل مسئولية أو على الأقل من الناحية النفسية .. ودائماً أكرر أن عملى بالمرور كان أكثر ما كان .. مع لوحات معدنية .. التقط أرقامها .. وتحرير المخالفات للمخالفين .. جريمة بسيطة .. لا تتعدى الغرامة المالية .. ياليت الأيام تمر حتى لو اقتطعت أياماً وشهوراً محسوبة من عمرى .

-٦٠-

حل ميعاد اجازتى .. لكننى فوجئت أن مصطفى لا ينتظرنى كالعادة .. لكن عينى لمحت فى " استند " الجرائد والمجلات رواية .. سجين زفتى .. وشعرت بقبضة غير عادية حينما أمسكت بالرواية .. وطالعت غلافها المرسوم عليه مسجون يقوم أحد الضباط بجلده بسوط .. وترددت فى شراء الرواية بعد أن تصفحتها ووقعت عينى على عبارات غريبة ومستفزة .. نظر لى بائع الجرائد .. وقال لى فى تلقائية :

– دى رواية حلوة قوى يا أستاذ .. بتبين الظلم فى السجون .. آه .. أنا قريتها وصعبان على أوى بطلها اللى اسمه " رأفت " اللى اتجنن من كتر الضرب فيه من الضابط اللى اسمه " ابراهيم " ده ظابط ظالم .. وربنا على الظالم .

وناولت بائع الجرايد النقود وأخذت الرواية .. وأنا فى ذهول .. وتعجبت لما كتبه مصطفى .. صديق العمر الذى لطمنى أكبر لطمة على وجهى .

-٦١-

ألقيت بنفسى فى إحدى سيارات الأجرة .. وتوجهت لمصطفى فى مقر الجريدة .. وصعدت درجات السلم وكأننى أركب طائرة .. ودخلت عليه بمكتبه .. وما ان رآنى حتى انتفض من موقعه كأنه عامل عمله .. ولم يأذن لى بالجلوس ..

فجلست .. وكل منا ينظر للآخر فى صمت .. وهو يتهرب منى بنظراته .. ثم قال بصوت محبوس :

- حمد الله على السلامة

نظرت له ولم أعلق .. ورفعت الرواية فى مواجهته .. فتصنع الضحك وقال وهو يتلجلج :

- أنا كنت حاسس ان الرواية مش هتعجبك .. أنا مـش باكتـب تقرير .. أو مقاله .. أنا باكتب رواية .. يعنى من حقى أنـى أحلق فى الهواء .. وأمسك النجوم بايدى .

وكان تبريره غريباً ودبلوماسياً .. واستوقفنى الى حد كبير ولكن فى هدوء لمته:

- بس الحقيقة غير المكتوب . واللا ايه رأيك ؟!

فقال فى اصرار :

- أنا قلت لك باكتب قصة .. مش مقالة .. يعنى الحقيقة والواقع عمرها ما كانت إبداع .. ولو كانت مصدر له .

ونظرت له .. وقلت له فى حسرة

- بس اللى كتبته افترا وظلم .. احنا عمرنا ما كنا بالصورة اللى انت رسمتها يا مصطفى ..

وقال فى حدة ومجاملة :

- انا ما قصدتكش .. انا عارف أخلاقياتك ومبادئك .

وحاولت أن أجاريه للوصول لدافعه للكتابة بهذا الشكل المستفز ..

- واش عرفك ان مافيش ظباط زيى .. وظباط كتير كمان .. وانا ما أظنش ان حد من الظباط حطك فى موقف محرج .

فقال فى تأكيد :

- إطلاقاً .. بس .. أنا لما عرضت الرواية على النقاد وقبل ما أطبعها .. قالوا انى لو كتبت عن شخصيتك هتبقى مبالغة مش هنصدقها .

وضغطت على أسنانى محاولاً ألا تفلت أعصابى ..

- ليه يا مصطفى .. إذا كنت أنا .. صديقك .. مش بالشكل اللى انت كتبته ورسمته لشخصية ظابط السجون .. وانا ما قلتش لك حاجة بالشكل ده .. ايه مبررك ؟!

وشعرت انه ارتبك وأخرج سيجارة وأشعلها فى عصبية حتى أن عود الثقاب كاد يحرق يده .

- اللى كتبته من قبيل الفلفل والشطة .. حاجة حريفة بتدى العمل طعم .. الناس بتقبل عليه .. ثم .. أنا حر يا عصام .. هو انا باتدخل فى شغلك .. ده شغلى ومستقبلى .. وما تنساش ان انا لسه فى أول الطريق ومحتاج انى أنتشر .

ونهضت من على مقعدى وقررت بينى وبين نفسى أن يكون تصرفه هذا حداً .. أنهى صداقتنا وقلت له قبل أن أنصرف :

- الأمانة فى العمل أياً كانت .. لصحفى أو ظابط أو قصاص أو غيره .. هى سر نجاحه .. ومخالفته الواقع أو تشويهه بصاحبه .. وعمره ما هيرفعه .

وزاد ارتباكه وحاول أن يجلسنى ليبرر فعلته والتى لا أجد لها مبرر .. وقبل أن يكمل حديثه خرجت من الباب مسرعاً .. وكأن ستارة سوداء نزلت لتنهى فصلاً مسرحياً من حياتى " صداقة مصطفى " الصديق الوحيد الذى كان أقرب الناس إلى قلبى وعقلى ونفسى .

-٦٢-

أصبحت فى موقف لا أحسد عليه .. فأنا لا أصدق نفسى .. مرآتى التى أحدثها عن نفسى .. وعما يجول فى خاطرى .. مرآتى صديقى .. كانت كاذبة .. أفرطت ثقتى فيها .. فخانتنى .. هى أصبحت مثل علا .. نعم .. الصديق خابت فيه ظنونى كالحبيبة التى صدمت فيها من قبل .. كم أنا حزين .. أن أكون وحيداً بدون صديق .. وهل من الممكن أن أجد صديقاً أحكى له .. وأطير به فى سمائى .. وأنا أصبحت فى حالة جعلتنى أشعر أننى الغلط .. والجميع هم الصح .. هل أنافق .. هل أتخلى عن مبادئى .. هل أعتزل الواقع الذى أعيشه؟!..

لا أعرف وكم أتمنى من الله أن أمر من هذه الأزمة .. أكبر أزمة .. فالحبيبة يمكن تعويضها .. أما الصديق فلا .. ترى .. هل كانت تبريراته بأنها مهنته التى يرتزق منها .. وهى سبيل رفعته ؟! هل ألتمس له العذر .. لا .. ياليته كان أبدى أسفاً فأسامحه .. ولكن تمسكه بالخطأ وتماديه فيه وتبريره له .. زاد الطين بلة .. هل أنا مبالغ حينما عاتبته .. هل ما فعله ضد مبادئى وقيمى .. أم أنا حساس أكثر من اللازم .. هل حملته أكثر مما يحتمل .. لا أدرى .. وأتمنى أن أجد له عذراً حتى لا تنتهى كل قيمى ومبادئى .. وأنتهى أنا أيضاً .

-٦٣-

توجهت الى المنزل وكلى أسى .. وقد لاحظت أمى .. فأنـــا على غير عادتى حينما أمنح إجازتى .. وخاصة فى اليوم الأول والساعات الأولى منها .. فلم يكن أمـــامى إلا أن أرتمـــى فـــى حضنها وأبكى .. ولابد أن أبكى .. ولكننى لم أحكى لهـــا عمـــا حدث حتى لا تصدم هى الأخرى .. خاصة وأنها تعلم مدى تعلقى به .. ودخلت حجرتى .. وأحاول أن أحلل موقفـــه .. وعـــدت بذاكرتى حينما كنا طلبة فى الثانوية العامة .. تذكرت أكثـــر أن مصطفى قد تقدم معى للالتحاق بكلية الشرطة .. ولكنه لم يقبل لقصر قامته .. وأن قدميه بهما " فلات فوت " بطريقة ظاهرة .. وتذكرت أكثر حينما كان يقوم بتفصيل أحذيته لأنه لم يجـــد مـــا يناسبه من الأحذية الجاهزة .. وأدركت أنه مّركب نقص يسيطر عليه فى اللا شعور .. وكان نتيجته كراهيته للضباط.. أما أنا .. فينظر لى كصديق .. قبل أن أكون ضابطاً .. كما وأنه يلح دائماً فى أحاديثه على تفضيله مهنة الطبيب لى عن مهنة الضابط .. ولا أدرى .. هل أعذره عما خرج منه فى الشعور .. ودوافعـــه اللا شعور .. وبدأت أشفق عليه .

-٦٤-

لا أصدق نفسى .. مدة عملى بسجون الوجـــه القبلـــى قـــد انقضت بسرعة رغم طول مدتها التى طالما عانيت منها .. ولكن كانت خبرة لا أنكر أنى استفدت منها .. خبرة لا يســـتهان بهـــا سواء فى العمل أو على نفسى التى تأرجحت كثيراً بين الواجب

والقيم .. وبين واقع البشر المرير الذين دائماً أجد لهم الأعذار .. فكل إنسان ينحرف عن القيمة .. يكون له مبرراته .. حتى لو كانت غير مقبولة .. وأحمد الله أن الفترة مرت على خير .. فقد أضافت فى محصلتها بقدر ما أخذت .

وتوجهت للسيد المأمور لأصافحه قبل تنفيذ قرار نقلى للقاهرة .. ففوجئت بأنه والسيد نائب المأمور .. والاخوة الضباط قد أعدوا حفلاً لى .. ولزميل آخر .. قد انقضت مدة خدمته بسجون الوجه القبلى .. وكم كنت سعيداً .. لهذه اللفتة الكريمة التى عمقت ولائى وانتمائى للجهاز الذى أعمل به وأعتز به .

عقب الحفل .. جلس معى السيد المأمور .. كأب يلقى بنصائحه على ابنه .. كما أنه حلل شخصيتى خلال تلك الفترة وقال :

- إنشاء الله هاشوفك فى أعلى المناصب يا عصام .. أنت ظابط على خلق .. وبنحب شغلك وبتتفانى فيه بعقلانية .. العقلانية عبء على صاحبها .. ويا ريت ما تغيرش موقفك تجاه المواطنين اللى بتتعامل معاهم .. وما تخدش المساجين كمقياس للتعامل .. انت عارف انهم لهم ظروفهم الخاصة .. وصدقنى يا عصام .. انا باحب العمل فى السجون .. وباحب المساجين .. لكن مسئوليتى كمأمور .. إلى حد ما .. بتجعل حاجز بينى وبينهم .. والبركة فيك والضباط زملائك .. بتعتبروا همزة الوصل بينى وبينهم .

ركبت القطار .. لأعود إلى القاهرة .. بلا عودة للسـجن .. كانـت فرحتى تفوق كل الأحاسيس التى شعرت بها من قبـل .. ولكـن .. بمجرد أن اختفت البلدة الكائن بها مكان السجن .. شـعرت بـأننى فقدت شيئاً غالياً وعزيزاً .. سنتان من عمرى قضـيتها هنــاك .. وأصبحت جزءاً من نسيج حياتى .. لن أنساها رغـم قسـوتها .. وفرت الدموع من عينى .. دون أن أشعر وتذكرت مقولة أهل تلـك البلدة حينما يقولون :

- " البلد دى اللى داخلها بيبكى أول ما يدخلها .. وبيبكى ساعة ما يفارقها "

وتمنيت على غير عادتى أن تطول مدة السفر حتى أتذكر كل شىء فى رحلة القطار .. من ركابه والباعه الجائلين به .. حتى الكمسارى .. وحامل الحقائب .. كانت بلا شك أيام لها ذكريات .. أثرت فى كيانى .

-٦٦-

ووصلت الى محطة القاهرة .. وكأننى أرى الأنوار المبهـرة لأول مرة .. وكأننى ما سافرت من قبل .. وكانت المفاجأة .. مصـطفى ينتظرنى ومعه إبراهيم العاصى وصديقى الطبيب خليل حسـنين .. فأدركت على الفور أنهما جاءا معه " كحمامتى سلام " ليصلحا مـا بيننا .. والحق .. أننى سـعدت بوجـودهم الثلاثـة .. وابتسـمت لمصطفى الذى كان يتهرب منى بنظراته .. ثم عانقتـه .. عانقتـه بحب .. فدفء الصديق إحساس خاص لا نشعر به إلا مع الصـديق .. وتواعدنا على اللقاء مساءاً فى نادى الشرطة .

-٦٧-

أمى .. تقبلنى .. وتحضننى وتبكى فى حـرارة .. وكـأننى بالفعل كنت مسجوناً .. وأفرج عنى .. عناق هذه المرة يفـوق عناق كل إجازة كنت أحضر فيها لبيتى .. وفرحـة الجميـع .. أخى وأختى .. فأنا سأشاركهم أنفاسهم كل لحظة طوال اليوم .. أشاركهم كل وجبة تعدها أمى من يدها الطيبة .. ثم دخلت إلـى حجرتى أتفحص كل شىء فيها بدءاً من صورة أبى الموضوعة على الكومودينو .. حتى بدلته الميرى التى ما زالت معلقة فـى دولاب ملابسى .. وتنفست الصعداء .. وكأننى أعود للحياة مرة أخرى .

-٦٨-

توجهت لاستلام عملى بالمرور مرة أخرى وصافحت زملائى القدامى .. وانهالت علىّ أسئلتهم عن الفترة التى قضيتها ضابطاً فى السجن .. فلم أجب بغير أنها تجربة فريدة .. عـدت منهـا بتجارب عديدة .. وتذكرت صلاح .. وقررت أن أذهب لزيارتـه فى المستشفى .. وبالفعل توجهت للمستشفى أثناء خط سـيرى بالدراجة البخارية لتنظيم المرور .. وما ان توجهت إليه فوجئت بناهد تتشح السواد وتجلس معه فـى حديقـة المستشـفى .. وترددت فى بادىء الأمر أن أقتحم خلوتهم .. لكننـى أقـدمت رغبة منى فى معرفة ما وصل إليه صلاح من حالة صـحية .. ولمعرفة سبب اتشاح ناهد بالسواد .. ولكننى فوجئت أن صلاح شارد ولم يرنى أو يعيرنى انتباهاً .. وناهد نظرت لى وبكت ..

وتمنيت أن آخذها فى أحضانى لأخفف عنها .. فكم هى قاسية .. الحياة .. وفكرت فى زيارة أمه خلال يوم راحتى الإسبوعية .

-٦٩-

توجهت لزفتى وكلى إصرار وحنين لرؤية أم صلاح .. أمى الثانية .. وصعدت السلم أقدم قدماً وأؤخر الأخرى .. حتى وصلت لباب الشقة .. فضغت الزر .. وفتحت أخته .. وهى الأخرى تتشح بالسواد .. فأدركت أن الأم قد ارتاحت من آلامها وهمومها .. ثم نظرت لى أخت صلاح بنظرة حادة مخيفة ولم تسألنى من أنا !! .. بل أغلقت الباب فى وجهى بشدة .. وعدت أجرى على السلم .. وكأننى فى حلم أو كابوس .. فنظرة تلك الفتاة المريضة أنستنى حزنى على تلك السيدة المسكينة .. وتوجهت للقطار مسرعاً .. وأنا أفكر فى أمر أخيه الصغير المسكين الذى سيعيش مع تلك الأخت المريضة .. الأخت التى عادت فى الوقت المناسب لترعى هذا الصغير .. اللهم لطفك بهذه الأسرة التى طالتها لعنة جنون العبقرية .

-٧٠-

دخلت بيتى وكلى هموم .. فأنا أحسب نفسى فرداً فى تلك الأسرة .. التى أكلها السراب .. ثم أغمضت عينى وفتحتها وأنا فى ذهول .. لا أصدق نفسى .. علا .. عندنا ؟! لمحتها تخرج من حجرة الصالون وتتبعتها أمى وأختى .. وعيناها اغرورقت بالدموع .. ونظرت لى .. نظرة كلها حسرة وأسى .. وخرجت

البيت ولم تصافحنى .. ولم تتفوه بكلمة واحدة .. وأنا لا أصدق نفسى .. هل أنا فى حلم .. أو كابوس ؟!

وما ان دخلت حجرتى أحاول فك رموز الأشياء الكثيرة التى أثقلت كاهلى .. وكأن كل الهموم كانت تنتظر عودتى للقاهرة .. ودخلت أمى علىّ .. وعينى كلها تساؤلات عن سبب قدوم علا إلينا .. وأطرقت .. وأمى قالت وهى تخرج الكلمات بصعوبة :

- مسكينة .. أمها ماتت بمرض خبيث .. وهى اتطلقت

ونظرت لها مرة أخرى .. انتظر الرد عن سبب زيارتها .. وقالت فى حنان الأم :

- بقت لوحدها .. لا أب ولا أم ولا زوج .. بنت تستحق الشفقة يا رب ما تكتبها على ولادنا .

وسألتها فى هدوء عن سبب مجيئها إلينا وقالت وهى تبكى :

- مالهاش حد غيرنا يابنى .. أبوها كان أعز أصحاب أبوك .. وهى كانت بتعتبرنا أهلها .. وأبوك دايماً كان يقول دى بنت أخويا .

ونظرت مرة أخرى لأمى فى وجوم .. وتعجبت لتغير تفكيرها تجاه علا .. فهى سابقاً شجعتنى أن أتخطى أزمتى معها .. وقالت أنها لا تناسبنى .. حقاً أنك طيبة يا أمى .. ثم انتابنى شعور بالقىء وكأننى شربت سماً زعافاً .. ما زال يسير ببطء فى حلقى .

توجهت مع أصدقائى .. أحكى لهم عن عودة الحبيبة التى كرهتهـا .. وتعجبت حينما سمعت رأى مصطفى الذى بدأ يتكلم معى بـتحفظ شديد .. وقال يجب أن تغفر لها .. وهى ليست أول الحبيبات اللاتى صدمن فى زيجتهن الأولى .. ومن حقها أن تبحث عـن الحبيـب " الأولى " ولما نظرت له فى اعتراض فوجئت به يقول أنه يعرف فتاة أحلامى الجديدة .. ثم همس فى أذنى قائلاً :

- هى فعلاً تنحب .. لأنها نموذج فريد للبنات فى الأيام دى

.. نظرت له دون أن أعلق واستطرد وقال :

- بس ما ينفعش يا عص يا صاحبى .. دى خطيبة مسجون كان عندك فى السجن .. ده لا يليق بوظيفتك ولا أخلاقياتك .

وما ان فرغ من حديثه .. عاودنى الشعور بالقىء .. وكأن حيـاتى السابقة مع علا .. ومصطفى .. كانت نقطة مضيئة فى حياتى .. ثم مال على صديقى الطبيب " خليل " وقال هامساً :

- إذا ما كنتش بتفكر فى الجواز دلوقتى أنا بافكر فيه .. ونظرت له هو الآخر فى دهشة .. وكأن كل شىء أصبح لغز فى حياتى.

ولم أعلق على حديثه وعاود حديثه هامساً :

- ايه مش موافق .. ده أنا صاحبك وانت عارف أخلاقيـاتى .. وانا ما أقدرش أقدم على هذا الموضوع إلا بعد موافقتك .

ونظرت له .. ولمصطفى وابراهيم وأنا فى ذهول عما يحدث .. هل خليل يريد الاقتران بعلا ؟! وقمت وأعددت نفسى للانصراف بعد أن

شعرت أن الجلسة هذه المرة " دمها تقيل " ولكن خليل صافحنى بحرارة وقال معلقاً :

– خلاص يا سيدى هناخد رأى الحاجه والدتك .. وناخـد رأى العروسة ..

وانفجرت فيه بحدة بالغة .. للاستفسار عما يدور هذه الليلـة من ألغاز .. ولكن خليل قابل حدتى بالضحك وقال :

– ايه مش عاوز تناسب صديق طفولتك .. مع ان العروسـة مناسبة ليا .. والا انت بتعمل حساب لفـارق السـن .. ده أنـا أكبرمنها بسبع سنين بس .

وشعرت بالتخبط والحيرة .. وكأن التوتر أصـبح مـن سـمات شخصيتى .. ثم ضحكت بهستيريا .. وقلت فى نفسى .. اللهـم خيب ظنونى وخاصة بالنسبة لمصطفى .

-٧٢-

وفى مساء اليوم التالى تعالت الزغاريد فى بيتنا بعد أن تقدم خليل .. لخطبة أختى " ريهام " وكم كانت أمى سعيدة لاقتـران أحد أصدقائى بأختى .. وكانت الفرحة تعم وجوه الجميع .. عدا مصطفى الدى انزوى فى مقعده سارحاً .. وأنا فى عجـب مـن تصرفاته التى بدت غير طبيعية وكأنه يكن لى شيئاً فى نفسه .. لا أعلم ما هو .. ثم مال على أذنى هامسـاً صـديقى إبـراهيم العاصى .. وأخبرنى أن مصطفى كان يود الاقتران بأختى ريهام .. ولكن ما حدث بيننا من قطيعة فى الفترة الماضية جعله فـى

حرج أن يعرض هذا الموضوع .. وتعجبت وضحكت فى نفسى .. ثم نظرت الى أختى " ريهام " التى لم تتجاوز التاسعة عشـر .. كانت بالأمس طفلة .. وسرعان ما غدت عـروس يتسـابق أصـــــدقائى للاقتـــــــران بهـــــا

وأثناء سرحانى .. حضرت " ريم " ابنة خالى عبد الرؤوف التى تقارب ريهام فى السن .. وهى الأخرى غدت عروس جميلة .. وأنا لم أرها منذ سافرت مع خالى لبلد عربى منذ سبع سـنوات .. يالها من أيام تسرع وتجعل كل شىء كبيراً .. عدا حبى .. ثم فوجئت " بعلا " تأتى مع خالها للمشاركة فى حفل عرس " ريهام " بدعوة من أمى .. التى علمت أنها على اتصـال دائـم بهـا تليفونياً للاطمئنان على حالتها .

وصافحتنى ريم ابنة خالى .. ونظرت لى نظرة تعدت نظـرة القرابة .. نظرة من أنثى ناضجة كاملة الأنوثة .. شعرها الذهبى .. وعيناها الخضراوان .. وكأنها لوحة جميلة لأميرة .. رسمت فى القرون الوسطى .. وقد لاحظ خالى نظرات إعجابى بهـا .. ثم مال على أمى وهمس وهو يبتسـم .. وفهمـت مقصـده .. وأدركت أن أمى سترحب بما سيعرضه عليها .. فأنا أعرف أنه يحبنى كإبنه وأكثر .. وكم كان يردد أنـه سـوف يختـار لـى عروستى عندما أكبر.. وتنهدت .. يالها من أيام تغدو مسرعه تضيف إلى أعمارنا سنين وتأخذ سنين .

وما ان انتهت مراسم الخطبة على وجه أسعد أمى .. ودخلت الفرحة بيتنا الذى ظل حزيناً سنوات طوال .. بعد وفاة والدى .. ثم دخلت على أمى وأنا مستكن فى حجرتى .. أفكر فـى أمـر مصطفى الناغى .. الذى كان يود خطبة أختى .. وفاتحتنى فـى موضوع ريم إبنة خالى .. وتكرر عبارتها المعتـادة ..أنـه آن الأوان كى تفرح بى .. وكم تود أن ترى أحفادها قبل أن يصيبها مكروه .. وأنا أؤكد لها .. أنها العروس التى يتمناها أى إنسان .. ولكنى ما زلت مجروحاً .. خاصة وأن 'علا 'عادت لتفـرض وجودها داخل أسرتنا .. وأيضاً ' ناهد ' .. التى أتمنى أن أقترن بها مهما كانت الظروف .. فهى الفتاة الوحيدة التى وجدت فيها أحلامى .. وإذا ما عقدت مقارنة بينها وبين علا وريم .. أجـد أنها تتمتع بصفات تنقص الإثنتين .. خاصة صبرها .. ورقتهـا .. وشهامتها .. وإخلاصها .. فهى أقرب إنسانه فى الشبه لأمى .. مثلى الأعلى ..

-٧٤-

لا أصدق عينى .. نبوءة مصطفى تحققت .. خبر صغير فى الجريدة .. غالباً ما يلفت نظرى .. صلاح .. انتحر فى مستشفى الأمراض العقلية .. مأساة .. رغم أنه قد استراح من همومه .. من مرضه .. من حياته التى تطاردها لعنة المـرض .. لعنـة العبقرية التى قادته للمصير المحتوم .. مسكينة ناهد .. ولكن .. من مصطفى هذا .. الذى قادته عبقريته للتنبوء بكل ما حـدث لصلاح .. من المؤكد أنه ليس بالصديق السهل السلس .. الذى

أحياناً ..أشك فى ذكائه .. ماذا أفعل الآن ؟ .. هل أذهب إليهـا لأشاطرها أحزانها .. أم أبكى .. هذا المسكين الذى أصبح رمزاً فى حياتى .. أين طبيب السجن الآن ؟ !.. حتى يصدق أن هناك مساجين يمرضون .. ويفقدون عقولهم .. بـل وينتحـرون .. ويكون الموت العلاج الوحيد لآلامهم فى هذه الدنيا العجيبة .

-٧٥-

ثلاثة أشهر مرت .. وكأنها ثلاث ثوان لا أكثر .. الوقت هنا يسرقنا من سرعة دورته .. وهناك فى السـجن .. يسـرقنا .. ويسرق عمرنا ولكن ببطء شديد .. وأحياناً أشعر أنه لا هـدف لى فى الحياة .. سوى أمى .. وأخى الأصغر .. وأحياناً أشـعر أن عملى هدف آخر .. ولكنه على وتيرة واحـدة .. تكـرار .. وملل .. الاستيقاظ فى الصباح .. ثم التوجه للعمل .. ثم العودة للمنزل .. وفى نهاية الأسبوع اللقاء مع الأصـدقاء .. ان مـا بداخلى أقوى من نفسى ومن وظيفتى .. وظيفتى التى تكشـف أشياء لا يراها سوانا .. يحسدنا عليها الناس تارة .. ويحقدون علينا تارة أخرى .. أشعر أننى فى نيران .. وليس فى جنة كما يعتقد الكثير .. يجب أن أخرج من نفسى الأخرى حتى أمـارس حياتى بطريقة طبيعية .. مثل باقى زملائى .. ومثل أصدقائى .. أو أكاشف الحياة .. مثل مصطفى الناغى .. ولا أحسب الأمـور بحساب دقيق .. وقد تخطىء من كثرة دقتها .

-٧٦-

أمى الحبيبة .. تسألنى بقلب الأم عن همومى التـى تراهـا أكثر منى .. أمى التى أتحجج دائماً أمامها بأن العمل يرهقنى .. ولكنها تردد أننى ابنها .. قطعة منها .. تعرف مدى حساسيتى .. ونظرتى الخاصة للأمور .. وترجونى ألا أحمل الأمور أكثـر من طاقتها .. وتؤكد أننى صورة من أبى الذى أصيب بمـرض القلب فى سن صغير من جراء المهنة التى أخذت منه الكثير .. وتؤكد أنه كان حساس مثلى .. بل أكثر أحياناً .. أبـى الـذى رفض أن يشهد فى كثير من القضايا .. لتأكده من براءة كثيـر من المتهمين .. مما قد يجلب له مشاكل كثيرة فـى العمـل .. وحمدت الله أننى صورة من أبى .. وليست من فراغ .. ولكن .. كيف أتخلص من حساسيتى المفرطة تجاه الأمور .. لا أعرف !!

-٧٧-

وجاءت الرياح .. على عكس المقولة .. بما تشتهيه السفن .. مأمورية تشريفة فى آخر صعيد مصر .. لشخصـية هامـة تزور البلاد .. وشعرت أن الحياة بدأت تأخذ وتيرة مغايرة لمـا اعتدت عليه .. وركبت القطار مع أحد زملاء العمل .. وكم كنت سعيداً أن أركب القطار مرة ثانية .. ليلاً .. واجتزرت ذكريـات السفر الذى كنت أكرهه .. وطوال الطريق أحكى لزميلى .. عن أسعد أيامى والتى قضيتها فى السجن .. أيام كنت أعتقد أنهـا حالكة الظلام .. ولكنها كانت تبعدنى عن أشياء كثيرة تكدر صفو أيامى بالقاهرة .. وعندما مر القطار فجراً بالمدينة الكائن بهـا السجن تمنيت أن أنزل من القطار لأصافح زملاء العمـل فـى

السجن .. وأرى المساجين الذين بكوا بعد انتهاء عملى بالسجن .. وكم أود رؤية مسعد البقال .. الذى كنت أبتاع منه لوازم العشاء .. حينما كنت أعود للاستراحة وصابر بائع اللبن الزبادى فى الفخار الصعيدى .. أشياء تذكرتها .. وكم كنت أكتبها إبان وجودى بالسجن .. لم أكن أدرك أنها ستكون ذكريات أتلهف على تذكرها .. وأتذكر أقل دقائقها .. يالها من أيام جميلة .

-٧٨-

ووصلنا ظهراً للمدينة .. وكنت مكلفاً أنا وزميلى بمرافقة التشريفة للضيف الزائر .. أثناء تجواله بإحدى المناطق الأثرية الهامة .. وكم كنت سعيداً لأننى أتحرك بدراجتى البخارية فى مدينة هادئة .. لم يصلها التلوث .. سواء السمعى ..أو البصرى .. أو التنفسى .. وحمدت الله على هذه المأمورية التى أخرجتنى إلى حد كبير من معاناتى النفسية .. وكانت فرصة سانحة لزيارة أجمل آثار بلادنا التى كانت على مقربة منى أثناء عملى بالسجون .. ولم أزرها .. فلم يكن هناك أمامى من الوقت للتنزه .. والاجازة .. كانت من نصيب أسرتى فى القاهرة .

-٧٩-

عدت الى القاهرة بعد انتهاء المأمورية .. عندما وصل القطار للقاهرة نظرت للرصيف .. وتذكرت حينما كان ينتظرنى مصطفى عندما أقوم باجازتى الشهرية .. ولا أصدق عينى .. فأنا أرى هذه المرة مصطفى ومعه خليل صديقى وخطيب أختى

.. فشعرت أنه حدث مكروه .. خاصة وأن كل منهما بدا مكفهر الوجه .. وسألت فى لهفة .. فأخبرنى خليل أن أمى قد انتابتها نوبة قلبية أمس الأول .. ولم أكمل سماع حديثه .. وجريت وأنا لا أشعر بزمانى ولا مكانى .. وركبت سيارة أجره .. وطلبت من السائق أن ينطلق بأقصى سرعة .. والسائق نظر لى مستغرباً .. حيث أنه يعرف أننى ضابط بالمرور .. ولكننى رجوته بأن يسرع .. وأن يتفادى أخطار الطريق على قدر الامكان .

-٨٠-

كان مصطفى وخليل قد تبعانى .. أخبرنى خليل بأن حالتها مطمئنة .. لكنى لم أفكر فى شىء إلا رؤيتها والإطمئنان عليها .. ما ان دخلت من باب الشقة حتى انطلقت ناحية حجرتها .. ولكن بحمد الله .. كانت حالتها الصحية قد تحسنت .. وارتميت بجانبها أقبل يدها والدموع قد تحجرت فى عينى .. ولم يغفل لى جفن طوال تلك الليلة .. فأمى قد انتابتها نوبة قلبية أخرى .. واستدعيت الطبيب الذى أخبرنى أن الآلام الروماتيزمية قد تأثر بها قلبها .. وأن حالتها تحتاج عناية خاصة .. وأدركت أن الأيام القادمة ستأخذ شكلاً جديداً فى حياتى .. شكلاً يضيف توتراً علاوة على ما أشعر به من قلق وعدم استقرار نفسى .. وكم حزنت أختى التى كنا سنعد لزفافها فى الوقت القريب .. فكيف ستترك البيت وأمى فى أشد الحاجة لوجودها .. ونظرت لأخى الذى لم تتفتح زهرات الحياة بعد فى طريقه .. وتذكرت شقيق صلاح الصغير .. وهل سيكون مصير أخى مشابه له ..

إذا ما أصاب أمى مكروه .. وهواجس تسيطر على تفكيـــرى ..
هل سيتغير رتم الحياة الذى كنت أعده رتيباً من تكرار ألوانه ..
وتمنيت أن تعود الأيام على نفس وتيرتها السابقة أياً كان شكلها
.. وكأن الأيام الهادئة بدت العواصف تلوح بها بمستقبل يكتنفه
الغموض .. فكيف ستكون الحياة بعد أمى؟!

-٨١-

بدأت أمى تتماثل للشفاء .. وأثقلت كاهلى بعبارات أصبحت
سمة حديثها الدائم .. وكانت تكرر عبارات تلح فيهـــا بتعجيـــل
زواج أختى .. رغم الظروف التى تمر بها ونمر بها جميعـــاً ..
وتلح فى أمر زواجى حتى تطمئن .. أياً كانت العروس .. علا ..
أو ريم ابنة خالى .. أو غيرها .. وكأنها أعدت عدتها للرحيل ..
ورغم أن هذا واقع لابد وأن نتلمسه إلا أننا جميعاً نهرب من تلك
الحقيقة .. بل حتى لا نود سماعها .. وبالفعل عجلنـــا بـــزواج
أختى ريهام التى تركت فراغاً كبيراً فى حياة الأسرة .. فكم كانت
تتحمل عباً كبيراً بعد مرض أمى .. وشعرت أن الأخت معنـــى
كبير فى حياتنا .. لم أشعر به من قبل .. وكان زوجها صـــديق
العمر .. كما كان ظنى به دائماً .. إنسان بمعنى كلمة إنسان ..
فقد سمح لأختى أن ترافق أمى وتسهر عليها .. فى أول شهور
زواجها الأولى .. فكم هو معنى جميل أن تقترن الأخت بصديق
يقدر الظروف التى تمر بها الأسرة .. وبقى لى أن أقـــر فكـــرة
الزواج .. ولكن من هى العروس ؟!

-٨٢-

مهما فكر الانسان فى أمور الحياه .. ومهما كانت إرادته فى ترتيب مجرياتها على شكل يجعل الأمور أكثر استقراراً فإن عناية الله تشملنا .. وتكون إرادته أشمل معانى الرحمة .. وأصبحت حالة أمى تستجيب للعلاج .. الذى داومت إبنة خالى ريم على متابعته .. بل أن علا كانت تأتى لترافقها فى فترات عدم وجودى بالمنزل وتنصرف قبل أن أعود .. وكم كانت أمى سعيدة بوجودها .. ولكنها لم تفاتحنى فى أى أمر يعيد المياه لمجاريها .. خاصة أنها كانت فى تلك الفترات تتقابل مع ريم إبنة خالى .. ويدور بينهم أحاديث كثيرة .. عدا الانسياق فى سيرة خطبتنا السابقة بأيامها الحلوة ونهايتها المرة .. ولكن ابنة خالى عرفت علاقتنا السابقة .. ولم تحاول هى الأخرى الخوض فى تفاصيلها .. وشعرت أن أمى قد ازدادت تعلقاً بعلا .. التى شعرت أنها إبنة تعوضها عن أختى .. فكم أنت طيبة يا أمى .

-٨٣-

أصبحت سمة لشخصيتى .. أن أسرح بفكرى .. ولا أشعر بمكانى ولا زمانى .. وقد لاحظ جميع أصدقائى .. وأفراد أسرتى .. حتى زملاء العمل .. فشبح صلاح .. عاد يطاردنى فى صحوى ومنامى .. وكنت أظننى نسيته .. ولكنه عاد وأصبح كأنه الوجه الآخر لشخصيتى .. فأنا لم أكن عبقرياً مثله .. ولكن أفكر فى كل شىء .. صغيرة أو كبيرة .. وقد أضافت أمى تلك الملاحظة إلى ملاحظاتها الكثيرة .. فهى كعادتها تتفحص عن

قرب وعن بعد .. وقررت أن أحكى لها تأثير تلك الشخصية العجيبة التى تركت الحياة .. وكأنها روح تطاردنى .. وخاصة حلم يتكرر فى منامى فى الفترة الأخيرة .. فأنا أراه يمد يده لى ويكرر عبارة لم أستطع أن أجد لها تفسيراً .. فكان يردد أنه لا يجب أن أتركه هذه المرة .. فهو فى حاجة لى .. كمثل من هم فى حالته .. كلهم يحتاجون أن أمد لهم يد العون .. ويكرر أن نفسى الصافية أقرب إلى أرواحهم سواء كانوا أحياء أو أموات.

ما ان فاتحت أمى فيما أحلم به .. حتى أصابتها الدهشة .. بل أن نظرات أمى بدا فيها الخوف والاضطراب وسألت أسئلة كثيرة من خبرتها فى تفسير الأحلام التى انتقلت لها من خالتها التى أتذكرها عندما كنت صغيراً .. وكم كنت أجدها تودود فى أذنيها بعبارات غير مفهومة .. وكم كانت تخاف منها .. فهى قد تنبأت أو حلمت على حد قولها أن أبى سيصيبه مكروه .. وعندما أراجع نفسى أجد أن أبى قد وافته المنية فى ظروف طبيعية .. حتى لو كان مرض القلب سببها الطبى .. ولكنها ألحت فى سؤال بعينه وقالت :

- قوللى يا بنى .. لما الراجل ده مد لك إيده .. مسكتها ؟!

ولم أعلق .. فكم تكون الأحلام مشوشة أحياناً بشكل يصعب معه تذكر تفاصيلها ولكنى قلت لها .. أننى لا أتذكر .. ولكنها ألحت فى إعادة نفس السؤال وقد تغيرت جميع ملامحها :

- افتكر يابنى .. ضرورى تفتكر .. عشان خاطرى افتكر .

وحاولت أن أتذكر حتى أرضيها وأجد إجابة لسؤالها .. ولكن بلا جدوى .. فما كان منها إلا أنها احتضنتنى وبكت بحرقة .

-٨٤-

فكرت فى أن أستشير طبيب نفسى .. أو على الأقل ممـــن يفهمون فى تفسير الأحلام .. وسبب عودة طغيان تلك الشخصية على نفسى .. ولكن قررت ألا أفاتح أحداً فى هذا الموضوع حتى لا أكون فى موقف محرج بين الجميع .. فالناس كفيلة أن تحيل تلك الفكرة إلى حالة مرضية أو على الأقل انتقال تلـــك الحالـــة المرضية لى لتكرار تفكيرى فيها .. ولكننى قررت أن أتناســـى الموضوع برمته .. فأنا .. ضابط بوليس .. والضابط يجب أن يكون قوياً .. ليس فى تصرفاته فقط بل فى نفسيته أيضاً .. ولن يغفر لى أحد .. أن تخور نفسيتى .. خاصة رؤسائى فى العمـــل .. فواجب الرئاسة وما ينبغى فيه للرئيس من فراسة أن يتـــابع مرؤسيه وخاصة من الضباط .. سواء فى سلوكهم أو صـــحتهم العامة .. وخاصة الصحة النفسية .. .. فهى من عناصر التقييم الضرورية لمواصلة العمل للترقى فى جميع الرتـــب صـــغيرها وكبيرها .

-٨٥-

كلفت صباحاً بخط سير بالدراجة البخارية فى طريق المطار .. لوجود رحلات سياحية قادمة للقاهرة جواً .. وإذا بى أجد أثناء مرورى سيارة تنطلق " كالصاروخ " ولمحت قائـــدها .. فأدركـــت أنه شـــاب .. فانطلقـــت خلفـــه لتنبيهـــه .. فإذا بـــه

يزيد من سرعته كأنه يهرب من فعلة مـا .. فأسـرعت بقـدر إمكانيات الدراجة البخارية .. التى كدت أن أفقد توازنى فوقهـا حتى أتتبعه لاستيقافه .. فإذا به يزيد من سرعته .. ولم أشـعر بشىء .. بعد أن حدث احتكاك بين دراجتى البخارية ومـؤخرة السيارة .. وغبت عن الزمان والمكان .. وكل مـا أتـذكره .. صوت سرينة الإسعاف .. وأصبحت راقداً فى المستشـفى بـين الحياة والموت .

-٨٦-

حركة دائبة فى المستشفى بعد أن أجريـت لـى جراحـة عاجلة لإصابتى بكسر مضاعف " فـى الحـوض " والأم تبكـى بحرقة .. وأختى تنظر لى متعاطفة .. وزوجها لم يقصر فى أداء واجبه كطبيب .. والزملاء ينظرون لى متعـاطفين .. وكـأنهم يدركون أن هناك أمراً جد خطير .. حتى مصطفى .. لم يتوانى فى أداء واجبه كصحفى .. فقد " ملا " غالبية الصـحف بخبـر الحادثة .. مشيداً بشخصيتى التى ذكر على حد قوله " الضـابط الإنسان " .. وشدد فى مطالبة القصاص القانونى .. راجيـاً أن يبدى أى شخص بمعلوماته عن السيارة .. " البيجو " .. رمادية اللون .. التى أحد أرقامها " ستة " من ناحية اليمين .. وذلـك حسب المعلومات التى أدليت بها فى محضر ضبط الواقعة .

-٨٧-

على الرغم مما أعانيه من آلام فإن ثقتى بالله كبيرة ووجود الجميع بجانبى جعلنى أتأكد أن وجودى فى حيـاة الجميـع ذو

مغزى لم أدركه من قبل .. فصلتى بـــالجميع أساســـها العلاقـــة الإنسانية الحميمة .. ولكن ما قوبلت به من عناية ولهفة كـــان يفوق حد تصورى .. فالأصدقاء والزملاء حتى مأمور الســـجن الذى كنت أعمل به .. أتى لزيارتى .. ليس كواجـــب زمالـــة .. ولكن بحب وتقدير .. جعلنى أشعر أن خطواتى فى الحياة كانت صحيحة .. وكلما ازدادت على الآلام يخففها مـــن يزورنـــى .. خاصة أن علا وريم إبنة خالى لم تفارقا المستشفى .. وكانـــت دهشتى حينما حضرت ناهد هى الأخرى لتطمئن علىّ .. وكانت دموعها تسبق حديثها للسؤال عنى .. ثم فوجئت أن مصـــطفى هو الذى أخبرها بما حدث لى .. وكنت أعتقد أنها قرأت ما حدث فى الجرائد .. وكانت المفاجأة التى أذهلتنى .. أن مصطفى لحق بها فى المستشفى وأدركت أنهما على اتصال وأن موضـــوع " سجين زفتى " لم يكن مجرد قصة كتبها .. بل يعيشها مع بطلة الرواية .. وعندما انصرف مصـــطفى .. وناهـــد بصـــحبته .. أخبرنى زوج أختى أن مصطفى أخبره بأنه يستعد للتقدم لخطبتها .. وهى فى سبيلها للموافقة .. فنسيت آلامى وما أصـــابنى .. وأخذت أتعجب لهذا الصديق الذى يحقق كل ما تمنيته لنفسه .. وعذرت علا وشعرت أننى ظلمتها .. فكل الفتيات من حقهن أن يبحثن عن الاستقرار .. فالزواج هو الحقيقة الوحيدة فى حيـــاة المرأة .

وفى ذات ليلة .. اشتد على الألم عندما حاولت التحرك لتناول كوب ماء من على المنضدة القريبة من السرير .. وصدرت منى صرخة رغماً عنى .. وكانت المفاجأة .. أننى وجدت علا .. أمامى .. تفرك فى عيونها .. وهذه المرة الأولى التى أنفرد بها منذ أن افترقنا .. ووجدتها حائرة .. لما أعانيه من آلام .. وخطفت سماعة التليفون الداخلى لاستدعاء الطبيب أو الممرضة .. ثم اندفعت مسرعة من الحجرة لإحضار الطبيب .. ونظرت لساعة الحائط فوجدتها الرابعة صباحاً .. وعلى الرغم من آلامى أخذت أفكر فى أمر علا التى أتت أسرع من البرق ومعها الطبيب .. ولا أنكر أننى استرحت لوجودها معى فى تلك اللحظة .. ومعانى فاضت على نفسى وروحى أكثر من معانى الحب التى عرفتها معها .. وكانت دهشتى التى أشعرتنى بعقدة ذنب حيالها .. أنها لم تفارق المستشفى منذ إصابتى .. ولا أعلم بذلك .. وكانت تجلس خلف الباب بجوار الحجرة .. كالديدبان .. لا تشكو من قلة نوم .. أو من برودة جو .. أو من قيد حركتها بملابسها التى لا تغيرها إلا حينما تحضر أمى وأختى .

أمى تنظر لى فى حزن .. والدموع قد جفت فى عينها .. تحاول أن تتماسك لتعطينى القوة .. وكأن ما أصابنى أعطاها قوة .. تفوق آلام مرضها .. وحزنها على إبنها الذى تعتبره

سندها الوحيد فى تلك الحياة .. وكم كانت تكرر عبارات .. لـــم أفهمها إلا الآن .. فطالما قالت اننى لست مجرد ابن لها .. بل أنا الأب والأخ .. وعوضاً عن الزوج .. ومنتهى الأمل فى الحياة .. وكنت أحاول أن أتماسك بقدر استطاعتى أمامها .. ولكـــن قلبهـــا يحدثها بشىء أشعر به .. ولكننى لا أعرفه .. وسألتها عن علا .. حتى أفك عقدة قد أصابت لسانها .. فلغة عينها كانت خير معبـــر عن حزنها .. ولكنها تجاوبت معى هذه المرة .. وقالت فى تأكيد :

- انت لو لفيت الدنيا كلها مش هتلاقى ضفر علا .

ولم تعلق أكثر من ذلك .. فأدركت أن دور علا فى حياتها وحياتى تعدى دور المُحبة .. وأصبحت شيئاً كبيراً وعظيماً فـــى حياتنـــا جميعاً .. وتمنيت لو أراها ثانية حتى أكلمها .. وأنظر لعينيها .. فمن المؤكد أننى سأجد أكثر مما كنت أراه فيها حينما كنت أحبها .. ولكنها آثرت أن تجلس خارج الحجرة كلما أتت لزيارتى .. بل لخدمتى .. وأنا هل ما زلت أحبها ؟! .. أم هو حب جديد صـــادق من نفس الإنسانة التى أحببتها وكرهتها .. وأعود لأجد فيها أكثر مما كنت أتوقع من معانى سامية للحب الذى لم أعرفه من قبل .

-٩٠-

وذات ليلة .. حاولت أن أراها فكم أنا فى شوق لرؤياها ثانية عن قرب .. ولا أدرى سبب تحول مشاعرى تجاهها .. وتساءلت هل لأنها بدت أكثر عطاءاً .. أم أن الموقف الذى أمر به .. قد نفض " التراب " عـــن معدنهـــا الثمـــين .. وما كـــان منـــى إلا

ضغط الزر .. ولكن .. دخلت الممرضة التى يبدو أنها كانت واقفة على الباب .. فمن المؤكد أنها كانت تقف معها .. فلماذا لم تـدخل معها ؟! .. وما ان خرجت الممرضة حتى وجدتها تـدخل الحجـرة وتنظر لى متعاطفة .. وقبل أن أتحدث معهـا .. قالـت أن هنـاك شخصاً يريد مقابلتى للأهمية .. ونظرت لهـا فـى حيـرة .. هـل أصبحت لها مجرد مريض تعامله بشفقه لوجود صلة قديمة بيننا .. كررت سؤالها مرة أخرى :

- يعنى ما ردتش عليا يا عصام ..

وكان صوتها يحمل نفس النغم الجميل .. وكم كنت مشتاقاً لسماعه .. فكم هو عجيب أمر المحبين .

-٩١-

دخل الزائر .. رجل وقور .. تنم ملامحه عن رجل ريفى .. رغم أنه يرتدى ملابس "الفرنجية" .. مهندمة .. ومعه بوكيه ورد ضـخم .. وطلب أن أسمعه لدقائق معدودة .. إذا كانت ظروفى الصحية تسمح بذلك .. فرحبت به .. وعرفنى بشخصه وقال :

- أنا الحاج محمد الشناوى .. مقاول .. و....

ثم توقف لحظة .. طالت إلى حد ما .. ثم استطرد وقال :

- أنا جاى أزورك أولاً .. عشان أطمئن عليـك .. وأنـا سـألت الدكاترة .. والحمد لله طمأنونى عليك .

ثم عاد مرة أخرى وتوقف عن الحديث .. وشعرت أنه يجمع أنفاسه بصعوبة بالغة .. وجرتنى حاستى البوليسية لأعرف سبب زيارة هذا الرجل لى .. وسألته عن سبب الزيارة .. وعن تردده فى الإفصاح

عما جاء من أجله .. وقال بصعوبة بالغة وهو يضع رأسه في الأرض:

- حضرتك مش عارفنى ولا فاكر شكلى .. أنا مش هاطول عليك .. أنا صاحب العربية البيجو اللى حضرتك ذكرت فى المحضر إنها .. أو أنا السبب فى اصابتك .

ونظرتُ فى دهشة بالغة .. فأنا الى حد كبير ..أتذكر شكل قائد تلك السيارة .. انه شاب .. ثم تذكرت أكثر أنه يشبه صلاح .. لم أدرك هذا الشبه إلا الآن .. هل صلاح .. هو الذى كان يقودها .. أو على الأصح أنها رُوح صلاح .. ووجدت نفسى أصيح فى وجهه رغماً عنى .. لا أعرف من هذا الرجل .. وأكدت له أن الذى كان يقود السيارة .. شاب .. وليس رجلاً تعدى الخمسين من عمره .. فلاحظت أن كل جسده ينتفض .. والدموع تنسال من عينيه كالشلال .. ووجدت نفسى فى موقف لا أحسد عليه .. ودخلت علا الحجرة على أثر حديثى .. عندما فزعت فى الرجل بصوت عال .. وجلست بجوارى .. وهمست فى أذنى .. لتسألنى عما اذا كنت لا أرغب فى مجالسة هذا الرجل .. أخبرتها أننى أود أن أعرف السبب فى زيارته الغريبة .

وعاد الرجل يتمالك نفسه وقال أنه أتى لى لتأنيب ضميره عما ألم بى .. ثم قال بصوت محبوس .. أنه والد .. صالح .. وأنا لم أتمالك نفسى وصحت فى وجهه مرة أخرى وقلت له :

- تقصد صلاح .. بس انت مش شبه أبوه .. أبوه أنا شفت صورة أبوه فى بيتهم .. وانت مش شبهه خالص .

ونظر لى الرجل فى دهشة .. وعلا .. هى الأخرى بدت مندهشة .. ثم طلب منى الرجل أن يأتى فى وقت آخر .. عندما لاحظ أننى فى حالة عصبية بالغة .. ولكننى أصريت على أن يكمل حديثه .. فأخبرنى .. أن ابنه الذى كان يركب السيارة واسمه صالح .. وليس صلاح .. وأنه كان فى حالة غير طبيعية .. فهو يمر بحالة نفسية حرجة .. كانت سبباً فى عدم استمراره فى دراسته بكلية الطب .. وما ان سمعت عبارة حالة نفسية إلا وأصغيت له تماماً ورجوته هذه المرة .. وفى صوت منكسر .. أن يكمل حديثه .. واستفاض فى الحديث وبدت الرعشة تدب فى كل جسده .. وابتل وجهه عرقاً رغم أننا فى " عز البرد " .. وقال فى حسرة وألم :

- ابنى .. كان عبقرى .. كان من أوائل الثانوية العامة .. واتفوق فى دراسته لحد ما وصل للسنة الثالثة فى كلية الطب .. بس انقطع عن دراسته .. وعرضته على أشهر الأطباء النفسيين .. وظهر أنه عنده عقده .. من المشرحة .. لما شاف واحدة ست تشبه أمه متمدده على ترابيزة المشرحة .

ونظرت له مستعطفاً ولكن .. لا أعرف .. هل أبكى ..أم أضحك واستكمل حديثه وقد انهار تماماً :

- أصل والدته .. كانت ماشيه معاه .. وهو صغير .. وبعدين عربية صدمتها واتوفت .. وأنا فى الوقت ده كنت فى الخارج .. والولد لقى نفسه مع أمه فى المستشفى .. وبطفولته البريئة سأل الممرضة عن حالة أمه .. قالت له بكل قسوة .. إن أمه ماتت وفى المشرحة .

وبكت علا تأثراً برواية الرجل .. بعد أن كانت منفعلة مـــن طريقـــة حديثه فى البداية .. واستطرد فى حديثه مؤكداً أن الولد لم يدرك هذا الموضوع فى صغره .. ولكنه أيقظ فى نفسيته تلك الحادثة .. عندما دخل المشرحة " للدراسة " وساءت حالته الصحية وأنه يوم الحادث قد استقل السيارة ولأول مرة دون علم والده .

-٩٢-

علا .. تنظر لى فى دهشة .. تنتظر منى تعليق على ما جرى .. بينى وبين هذا الرجل المسكين .. وعيناها تؤكدان أنها تعرف قرارى .. فأنا لا أملك إلا الصفح .. مهما كان أثر ذلك الجرح الذى أصـــابنى .. أنها لم تكن رعونة من ذلك الشاب .. بل مصيبة حلت به .. هـــو ووالده .. فكم هى الدنيا مليئة بالمآسى .. وأنا عايشت تلك المآســـى مع أصحابها .. ومن العجب أن تمر بحياتى شخصـــيات لهـــا نفـــس الظروف النفسية .. وعدت لأتذكر الحلم الذى رأيت فيـــه صـــلاح .. يطلب منى أن أكونَ قريباً فيه .. ولمن هم فى ظـــروف مشـــابهة .. فكان ذلك الشاب الذى تتشابه ظروفه مع صلاح ولكن هذه المـــرة .. أنا طرف فى المأساة .. وقع على الضرر .. من مريض نفســـى وان كان لا يقصد ما حدث .

-٩٣-

وعاد الرجل يزورنى وكله أمل أن أقف مع إبنه فى محنته .. وقرر أنه سيضعه بمصحة نفسية للعلاج حتى لا يسببَ ضرراً للآخـــرين .. نتيجة ما اعتراه من حالة .. ليس له يد فيها .. بل هى لعنة أصابته .. وما كان منى إلا وقلت له .. أن السيارة التى تسببت فى الحادث لم

تكن هى نفس السيارة .. ولا تحمل رقم ست .. ضـــمن أرقامهـــا .. وبكى الرجل وأخذ يقبلنى .. وتخرج منه الكلمات بصعوبة .. مؤكـــداً أنه سيتكفل بعلاجى حتى لو اضطر الأمر للسفر للخارج .. فأنا .. إبنه الثانى .. وعلا هى الأخرى بكت .. وتقدمت منى .. وطبعت قبلة على جبينى وقالت .. أنها كانت ستخسر كل شىء ان لم تجدنى فى حياتها ..نوراً يضىء لها طريقها .. وهى .. نور .. توهج من جديد .. لأكمل معها مشوار حياتى .

-٩٤-

بحمد الله .. امتثلت للشفاء .. وخرجت من المستشفى .. وتعجلت أمى فى الإعداد للزواج من علا .. والكل مؤيـــد لقرارهـــا .. أختـــى وزوجها .. وأصدقائى مصطفى .. وحسين .. وأخى الأصغر .. وكانت فرحة علا تفوق كل وصف .. وتم الإعداد لكل شىء .. وقضينا شهر العسل بمطروح .. وكانت أيام جميلة .. لم أشعر فيها بالتوتر الـــذى كان يلازمنى فى الفترة الأخيرة .. وتأكدت أن علا هـــى " النصـــيب " على حد قول الجميع .. وكانت أكثر عطاءً .. إلا أننى كنت ألاحظ أنها تنزوى أحياناً وتبكى .. وكلما سألتها .. قررت أنه بكاء الســـعادة .. وأنها قد حققت أكثر ما كانت تحلم به .

-٩٥-

بعد انتهاء إجازة شهر العسل .. وجدت خليل زوج أختى يحضـــر لى فى العمل ومعه دوسيه به أوراق .. وقال فى تردد:

- إجازة سعيدة يا بونسب .. ودلوقتى هنبتدى رحلـــة اســـتكمال العلاج ..

ونظرت له فى حيرة .. ونظر لى فى شفقة واستطرد قائلاً :

- انت إيمانك بربنا قوى .. والمؤمن مصاب .. ورحلة العـلاج لازم نبدأ فيها بسرعة .. وإنشاء الله النتيجة مضمونة .

وشعرت أن هناك أمر خطير .. يعرفه الجميع ولا أعرفه .. وقلت له :

- يعنى أنا آخر من يعلم ؟!

-٩٦-

لم أحزن حينما علمت بالحقيقة لكن ما أحزننى هو حزن أمـى .. ورجوع خالى فى قراره بزواج ابنته منى .. وأمى كانت صريحة معه بما اعترانى .. وكانت أيضاً صريحة مع علا التى تمسكت بقرارهـا بالإقتران بى أكثر من قبل .. وقد أكدت لى أن قرارها ليس شـفقة أو تضحية من جانبها .. بل ان حبى تملكها .. وأنا أعرف أن مشاعرها صادقة .. فهى لم تخفى مشاعرها أياً كانت منذ أن عرفتها .. فكم أنت عظيمة يا علا .

-٩٧-

رضيت بقضاء الله .. وعوضنى بالزوجة التى تعطى بلا حدود.. وكان أخى هو الابن الذى عوضنى .. الأبوه .. وعوضته عن حنـان الأب الذى مات وهو صغير .. وعن حنان أمى التى فارقت الحياة .. بعد زواجى بشهور قليلة .. ودفنت معها أحزانها على ما أصاب إبنها

-٩٨-

الأيام تمر .. والفصول تتعاقب .. والحياة تبدو لى أجمل مما كانت عليه سابقاً .. فالحياه أمل نحيا به ومن أجله .

قمت صباحاً .. وعلا تطبع على جبينى قبلتها المعتادة .. وأخبرتنى أن أخى الصغير قد نجح فى السنة النهائية بكلية الطب .. وتخرج طبيباً وحقق أملى وصبرى على الأيام .. ثم أعطتنى الجريدة .. وقالت لـى فى حنان :

- اوعى تزعل يا حبيبى .. انا هاكون معاك ومش هاسيبك أبداً .

فنظرت لها ونظرت للجريدة .. وتذكرت على الفور أن اليوم ميعـاد حركة تنقلات الشرطة .. وعرفت أننى عينت مأموراً للسـجن الـذى عملت به أول حياتى .. وتذكرت التقرير الذى كتبه المـأمور سـابقاً لصالحى .. وأدركت أن الأوراق التى توضع فى ملف الخدمة ليسـت مجرد أوراق بل هى تأريخ .. يؤكد أن كل خطوة يخطوها الإنسان فى حياته العملية محسوبة .. إما له أو عليه .. واختلطت مشاعر الفرحة بالقلق .. خاصة .. ان السجون رغم الاهتمام بها فى هذه الأيام .. الا أن طبيعة الملحقين بها قد تغيرت .. مع تغير الأيام .. وما أسرع من مرور الأيام التى تتراكم لتصنع سنين .. وكأنها قطعة نسيج تكونـت من خيوط صغيرة .

-٩٩-

بدأت رحلة السفر من جديد .. بعد خمسة عشر عاماً .. من نفس المحطة ونفس الرصيف .. ونفس التوقيت .. ولكن هذه المرة كـان لها طعم خاص .. زوجتى .. حبيبتى ترافقنى رحلتى .. وبدأت أجتـر الذكريات .. الطريق بأشجاره .. والسماء بليلها ونجومها .. والمبانى التى تظهر كلما اقتربنا من محطة رئيسية .

وما ان وصلنا فجراً حتى وجدت أحد الضباط الذين كانوا يعملون معى .. وقد عين نائباً لمأمور السجن .. فى انتظارى .. وكم كنت ســعيداً برؤياه .. واصطحبت علا .. لاستراحة مأمور السجن الملحق بــه .. وتوجهت إلى حجرة النوبتجية .. حجرة ذكرياتى ولكن كل شىء تغير للأحسن .. إلا أن ذلك التغيير قد أصاب مشاعرى بصدمة قوية .. فكم كنت أتمنى أن أرى كل شىء .. كما تركته منذ خمسة عشر عامــاً .. حتى المدينة المتواضعة أصبحت متطورة شأنها شأن معظم عواصـم الوجه البحرى والقبلى التى لحقها التطور بصورة مذهلة وسريعة .

وتركت علا .. وذهبت أجتر الذكريات فى الأماكن التى كنت أسـير فيها .. وهى أيضاً قد تغيرت .. بائع لبن الزبادى والبقال قد توفاهما الله .. وتولى أبناؤهما تجارتهما .. فأصبح محل البقالـة المتواضــع سوبر ماركت .. وتحول الفخار الذى كان يوضع فيه الزبــادى إلــى أكواب بلاستيك .. كل شىء تغير .. وتوجهت ناحية النيل لأبحث عن المكان الذى كنت أهرب إليه عندما تزداد همومى .. فوجدت أضواءه الخافتة بالأعمدة " الكلاسيك " قد تحولت إلى إضاءة مبهــرة .. كــل شىء جميل ظل كما هو صورة فى خيالى .. ولم أقبل الواقع بتغيراته

تفقدت السجن فى صباح اليوم التالى .. فقد تطــور هــو الآخــر للأفضل سواء المكاتب أو عنابر المساجين .. والمطــبخ الــذى زود بأدوات حديثة .. والطعام قد تحسن إلى حد كبير .. وتوجهــت إلــى حجرة الباشكاتب .. فوجدت ثلاثة شباب يعملون بدلاً منه .. فتناولت دفتر قيد المساجين ودفتر الإفراج .. فوجدت أن آخر توقيع له كــان

منذ خمسة أعوام .. وعلمت أنه خرج للمعاش منذ ذلك الوقت .. وقد ترك فراغاً كبيراً لخبرته النادرة بهذه النوعية من العمل .. أما التغيير الكبير فكان فى نوعية المسجونين .. فقد انقسموا الى فرق .. المتهمين بالجرائم العادية .. وأصبح عددهم أقل مما سبق .. وطائفة أخرى جديدة .. تمثل الجانب الأكبر من المساجين .. وهم أصحاب جرائم الشيكات والاستيلاء على الأموال العامة وأموال البنوك .. وما استحدث من جرائم جديدة وغريبة على مجتمعنا .

وأكثر ما لفت نظرى .. ان المساجين المتهمين بجرائم تقليدية يتجنبون أصحاب الجرائم الجديدة .. ومن الملهاة أنهم يعدون أنفسهم أشراف .. ومنطقهم أنهم يسرقون أفراد مثلهم .. وحصيلة السرقة لا تتعدى الجنيهات .. أما أصحاب جرائم الأموال العامة فهم يسرقون أموال عددها لا يحصى .. أموال الشعب الطيب الصابر .. وكان يردد أحدهم أنه اذا ما أصبح المال العام مغنمة .. فإنه علامة من علامات قيام الساعة .

وبدأت أباشر عملى بنفس أسلوبى .. مما ترك أثراً طيباً فى نفوس المساجين .. خاصة أن السجين راوى قصة أبو زيد الهلالى وسيف ابن يزن كان يقضى عقوبة تضاف إلى عقوباته السابقة .. وقد بلغ من العمر ما يربو على الخامسة والخمسين عاماً .

وقد فوجئت بأن ضابط منوب السجن .. يعرض على أمر أحد المساجين المرضى نفسياً .. ويدعى الزفتاوى .. وبمجرد أن سمعت الاسم شعرت بدوار شديد لاحظه الضابط .

سألته عن اسمه الكامل .. فقال .. راضى الزفتاوى .. فأيقنت على الفور أنه شقيق صلاح .. سجين زفتى .. وقلت فى نفسى أن اللعنة طاردته هو الآخر .. وعندما طلبته لفحص أمره وجدته شخصاً آخر .. وأن الزفتاوى ليست كنيته .. بل هو اسم الجد .. فضحكت .. وفكرت أن أزور هذه الأسرة فى إجازتى المقبلة .. حتى أطمئن على حال شقيق صلاح الذى لا أتذكره إلا عندما كان صغيراً .. ترى .. إلى أين قادته الحياة ؟!!!

تمت بحمد الله

الكاتب فى سطور

- **عادل عبد المجيد القنصل .**
- مواليد الزقازيق ١٩٤٩/٧/٢ ومقيم ببورسعيد .
- لواء شرطة سابق وحاصل على ليسانس حقوق وليسانس آداب لغات شرقية .
- مؤلف بالإذاعة والتليفزيون وقام بتأليف ستين تمثيلية بها.
- عضو بنادى الأدب بقصر ثقافة بورسعيد .
- عضو اتحاد الكتاب .
- دارس وباحث فى أبجديات اللغات السامية واللغات الأوروبية .
- صدر له على نفقته الخاصة :

١. حياتنا حكايات وخواطر (تحليل المتغيرات الاجتماعية فى مجموعة خواطر وقصص قصيرة) .

٢. جدى وجدتى .. حكايات تجمعنا (تحليل للعلاقة الخاصة بين الأجداد والأحفاد فى مجموعة خواطر وقصص قصيرة) .

٣. نجوم عربية فى سماء الحضارة الاسلامية (يشمل أسفاراً وطرائف ومعارف لبعض علماء العرب) .

٤. على رصيف سبس " قصص تاريخية وخواطر عن مدينـــة بورسعيد "

٥. جلابية راشد " حكاوى عن ريف بلدنا "

٦. قلعة صقر " حكاوى عن سواحل بلدنا "